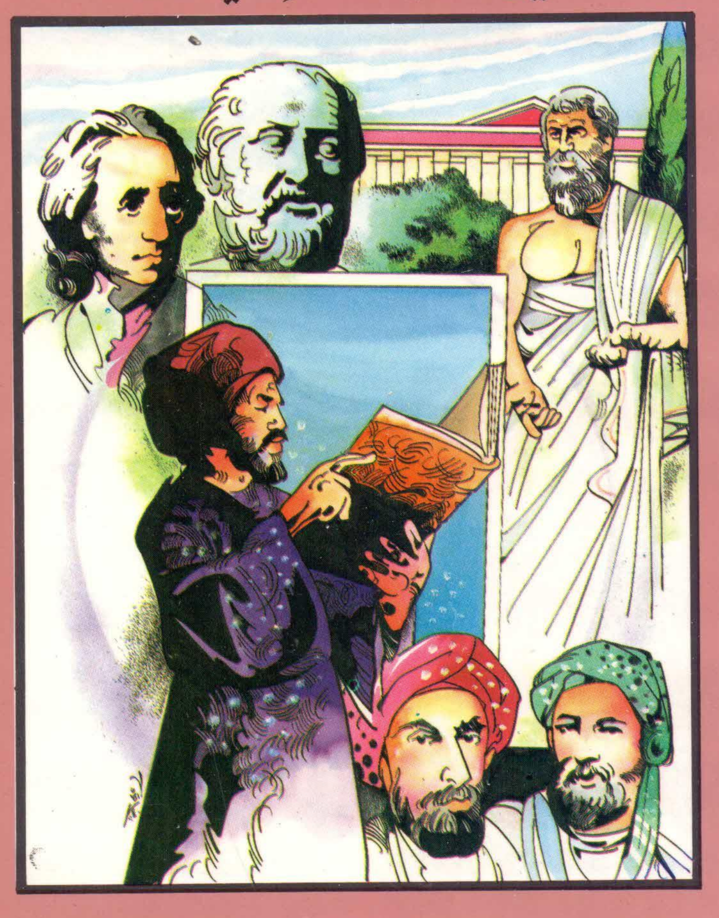
الأعلام من الفلاسفة

إعداد
ابراهيم شمس الدين

ماكيافللي

أمير فلسفة السياسة



دار الكتب العلمية

يطلب من : دار الكتب العلمية بيروت - لبنان
ص.ب : ١١/٩٤٢٤ - تلكس : Nasher 41245 Le
هاتف : ٣٦٦١٣٥ - ٦٠٢١٣٣ ٨٦٨٠٥١ - ٨١٥٥٧٣
فاكس : ٤٧٨١٣٧٣/١٢١٢/٠٠ - ٦٠٢١٣٣/٩٦١١/٠٠

الأعلام من الفلاسفة

ماكيافللي

أمير فلسفة السياسة

إعداد

ابراهيم شمس الدين

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

الطبعة الأولى
١٤١٤هـ - ١٩٩٤م.

دار الكتب العلمية بيروت - لبنان
ص.ب: ١١/٩٤٢٤ - تلكس: Nasher 41245 Le
هاتف: ٣٦٦١٣٥ - ٨١٥٥٧٣ - ٨٦٨٠٥١ - ٦٠٢١٣٣
فاكس: ٤٧٨١٣٧٣ / ١٢١٢ / ٠٠ - ٦٠٢١٣٣ / ٩٦١١ / ٠٠

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

يقول بنيتو موسوليني (ديكتاتور إيطاليا في مرحلة الحرب العالمية الثانية) في معرض كلامه على ماكيافللي وكتابه الأمير[١]:

«القضية هي ماذا يبقي خالداً في «الأمير» بعد أربعة قرون من الزمن؟» هل يمكن أن تكون لنصائح ماكيافللي أية فائدة لرجال الحكم المحدثين؟ هل أن قيمة المذهب السياسي لكتاب «الأمير» هي وقف على العصر الذي كتب فيه، وبالتالي فهي قيمة محدودة بالضرورة وباطلة إلى حد ما؟ أو ليست شاملة وواقعية إلى حد ما وخاصة وفعالة؟ إن رسالتي تجيب على هذه الأسئلة وأؤكد أن مذهب ماكيافللي حيٌّ اليوم بعد أربعة قرون. والسبب أنه إذا كانت المظاهر الخارجية لحياتنا قد تغيرت تغيراً كبيراً فإن التغييرات في روح الأفراد والشعوب لم تزل عميقة جداً.

ويتابع موسوليني كلامه فيقول:

«إذا كانت السياسة هي فن حكم البشر، أو بعبارة أخرى تربية أهوائهم وأنانياتهم ومصالحهم بالنظر إلى غايات نظام عام يكاد أن يخرج دائماً على نطاق الحياة الفردية لأنها غايات تمتد إلى المستقبل، إذا كانت

(١) نال بنيتو موسوليني شهادة الدكتوراه في الفلسفة بعد أن قدم اطروحته حول فلسفة ماكيافللي وكتابه «الأمير» وسنورد النص الكامل لتعليق بنيتو موسوليني في ملاحق الكتاب

تلك هي السياسة، فلا ريب في أن الإنسان هو العنصر الجوهري لهذا الفن ومن هنا يجب الانطلاق».

ما البشر في المذهب السياسي لماكياڤللي؟

ما فكرته عن البشر هل يتفاءل أم يتشاءم؟

لقد كتب الكثير حول «ماكياڤللي» خصوصاً حول كتابه «الأمير»، الذي خضع لحرمان الكنيسة، فقد أمر البابا بحرق الكتاب لأنه يبرر الجريمة بمقولته المشهورة «الغاية تبرر الوسيلة». لذا كان هذا الكتاب محرماً علناً ولكنه يُقرأ سراً وقد كان موضوعه الرئيسي هو السلطة وكيف تستولي عليها وتحافظ عليها بكل الوسائل.

لقد كان لظهور أفكار ماكياڤللي وفلسفته السياسة الأثر الفعال حتى أن الكثيرين من الفلاسفة والمفكرين وعلماء السياسة المعاصرين يقسمون تاريخ الفكر السياسي إلى مرحلتين رئيسيتين مرحلة ما قبل ماكياڤللي ومرحلة ما بعد ماكياڤللي.

فالمرحلة الأولى تبدأ مع اليونانيين كمرحلة تمهيدية، إذ كانت هناك كتب لفلاسفة يتحدثون عن السياسة وعلم السياسة فقط، مثل أفلاطون وكتابه «الجمهورية» وأرسطو وكتابه «السياسة» و «دستور الأثينيين».

والمرحلة الثانية تبدأ ما قبل النهضة في القرن الخامس عشر وهي مرحلة تأسيس هذا العلم (علم السياسة)، وهنا يبرز الاسم الأشهر والمؤسس، هو «نيكولو ماكياڤللي» والذي إن لم يكن المؤسس الأول فإنه من الأوائل الذين طرحوا منهج دراسة ما هو قائم بدل دراسة ما يجب أن يكون.

ونستطيع هنا رؤية التناقض بين هذين المنهجين.

فأفلاطون مثلاً في كتابه «الجمهورية» يتحدث عن الجمهورية

المفترض أن تكون، وهذا يدخل في باب الأخلاق والذي ينتهي بسلسلة توصيات للإنسان بما يجب أن يفعل. بينما ماكياڤللي يتعدى ذلك إلى التصرف الأمثل كون موضوعه يتناول بدل الفضيلة والسعادة أي المواضيع التي كانت بالأساس عند أفلاطون، فيتخطاها ماكياڤللي ويتناول السلطة ويعرفها، ويضع إرشادات للوصول إليها، وكيفية المحافظة عليها، وكيفية الحكم، انطلاقاً من ممارسة عينية يعرضها بتجربته أو قراءاته.

وقد كتب فرنسيس بيكون: يجب شكر ماكياڤللي والكتّاب من هذا النوع الذين يقولون بصراحة ومن دون مواربة، ما اعتاد الناس على فعله لا ما يجب عليهم أن يفعلوه»[1]

في هذا البحث سنحاول بقدر الإمكان تتبع فكر ماكياڤللي وتحليله رابطين بين المقدمات التأسيسية التاريخية والفكرية والسياسية والاجتماعية التي مهدت لفكر ماكياڤللي في أوروبا القرون الوسطى، وبين تأثير فكر ماكياڤللي على الفكر السياسي في أوروبا والعالم فيما بعد.

إبراهيم شمس الدين

---

(١) تاريخ الفكر السياسي، تأليف: جان توشار ولويس بودان وبيار جانين وجورج لافو وجان سيرينلي. ترجمة د. علي مقلد. الدار العالمية ١٩٨٧.

الفصل الأول

الفكر الفلسفي السياسي قبل ماكيافللي

لقد كانت الأفكار السياسية عند الشعوب القديمة، أمثال السومريين والبابليين والأشوريين والفينيقيين والفراعنة والصينيين والهنود والإغريق، تمتزج بأساطير قديمة تتخذها هذه الشعوب مثالاً، بحيث يمكن العثور على مفاهيمها في الحكم والسلطة والعدالة والدولة والحرب والسلم ضمن هذه الأساطير، إما من خلال المضمون الروائي الواضح لهذه الأسطورة، أو من خلال رموزها ومغازيها.

ولكن هذا لم يمنع في أن يكون للحضارات القديمة دوراً في تكوين الأسس التمهيدية لوجود فكر سياسي واجتماعي، إذ تجلى هذا فيما رواه أفلاطون في محاورتي طيماوس وكريتياس عن نظام الحكم الذي ساد أطلنتس القارة المفقودة قبل أكثر من اثني عشر ألف سنة وما حملته الألواح السومرية من محضر جلسة لبرلمان آرك انعقدت قبل حوالي خمسة الآف سنة، وما حملته أوراق البردى من وصايا في الحكم والدولة لبتاح حوتب ونفر روهو وتشريع حور محب[1] وما وجد من النقوش لتشريعات حورابي وعهد لقمان الملك[2].

ولكن التسجيل الأهم يعود للإغريق الذين كان لهم الفضل الأساسي في وضع الفكر الفلسفي السياسي في المستوى المنهجي المعرفي

(١) قصة الحضارة،ول ديورانت. المجلد الأول. جزء ٣ ص ٦٧ ـ ٧١.
(٢) نفس المصدر السابق ص ٢٠٧ ـ ٢١١.

الصحيح وذلك عندما وضع أفلاطون تصوره لبناء الدولة في كتابه «الجمهورية».

وسنحاول في هذا الفصل تتبع مراحل تطور الفكر الفلسفي السياسي قبل ماكيافللي وذلك من خلال أربعة فلاسفة كان لهم الدور الأهم والأكبر في تطور الفلسفة بشكل عام والفلسفة السياسية بشكل خاص وهم: أفلاطون، وأرسطو طاليس، والفارابي وابن خلدون.

أفلاطون (٤٢٧ ـ ٣٤٧ قبل الميلاد)

ولد أفلاطون في أثينا لأسرة كان لها الشأن الكبير في السياسة الأثينية. تثقف ثقافة أبناء الطبقة العريقة والأرستقراطية في ذلك العصر. وفي سن العشرين تعرف إلى سقراط فأعجب به ولازمه حتى أعدم. وكان إعدام معلمه له الأثر الكبير في حياته. مما دفعه إلى مغادرة أثينا إلى ميغاري حيث مكث ثلاث سنوات. ومنها أنطلق إلى مصر فقضى زمناً في عين شمس وأتصل بمدرستها الكهنوتية وأخذ بنصيب من علم الفلك.

وبعد نشوب الحرب بين أثينا وإسبرطة ووقوف نفرتيس ملك مصر السفلى إلى جانب أسبرطة، أضطر أفلاطون إلى مغادرة مصر والعودة إلى أثينا، ولما انتهت الحرب رحل إلى جنوبي إيطاليا ومنها إلى صقلية، حيث لم تمض فترة وجيزة حتى نفاه ديونيسيوس ملك سراقوصة بسبب أرائه الإصلاحية وانكاره الفساد المتفشي في البلاد، وبعد عودته إلى أثينا سنة ٣٨٧ق.م أنشأ أفلاطون مدرسة على أبواب المدينة سماها الأكاديمية وظل يعلم فيها ويكتب لمدة أربعين عاماً.

في هذه المرحلة كانت الحركة العلمية في كامل حيويتها ونشاطها بسبب المناقشات والمحاورات التي كان يجريها أفلاطون في أكاديميته مع طلابه وهم خليط من الأثينيين ويونان وآسيويين، رجالاً ونساءً، وكان

يقدم أفلاطـون في مدرستـه بمعاونـة عدد من العلماء علومـاً مختلفة، الرياضيات والفلك والموسيقى، والبيان والجدل والأخلاق والسياسـة والجغرافية والتاريخ، والطب والتنجيم، وتوفي أفلاطون في أثناء هجوم فليبوس المقدوني على أثينا عام ٣٤٧ ق.م.

مؤلفات أفلاطون

نسب إلى أفلاطون عدد كبير من المصنفات، منها ما هو عبارة عن محاورات ومنها ما هو رسائل، ومن هذه المصنفات:

١ ـ احتجاج سقراط، أو دفاعه أمام المحكمة.
٢ ـ أوطيفرون ـ يصف فيه موقف سقراط من الدين
٣ ـ هيبـاس الأصغر ـ وهو بحث في علاقة العلم بالعمل
٤ ـ القبيادس ـ وهو في معرفة النفس والجسم.
٥ ـ هيباس الأكبر ـ وهو في الجمال.
٦ ـ خرميدس ـ وهو في الفضيلة.
٧ ـ لاخيس ـ وهو في الشجاعة.
٨ ـ ليسيز ـ وهو في الصداقة.
٩ ـ بروتاغوراس ـ وهو في السوفسطائية.
١٠ ـ ايون ـ في الشعر وشرح الإلياذة.
١١ ـ غورغياس ـ في نقد السوفسطائيين.
١٢ ـ المقالة الأولى من الجمهورية، في العدالة.
١٣ ـ منكسينوس ـ في البيان.
١٤ ـ مينون ـ في الفضيلة.
١٥ ـ اوتيديموس ـ في نقد السوفسطائية أيضاً.
١٦ ـ اقراطيلوس ـ في أصل اللغة.
١٧ ـ المأدبة أو سمبوسيون ـ في الحب الفلسفي.

١٨ ـ الجمهورية ـ في رسم المدينة المثلى.
١٩ ـ فيدروس ـ في مختلف المواضيع.
٢٠ ـ بارمنيدس ـ وهو في المثل.
٢١ ـ تيتياثوس ـ وهو في العلم.
٢٢ ـ رسوفسطوس ـ في الفن وتقسيمه.
٢٣ ـ السياسي بوليطيقوس ـ في السلطة.
٢٤ ـ فيلابوس ـ في منهج البحث العلمي.
٢٥ ـ تيماوس ـ في تكون العالم.
٢٦ ـ اقريتياس ـ في المثل العليا.
٢٧ ـ القوانين ـ في التشريع الديني والمدني والجنائي وينسب إليه أيضاً كتاب «التقسيمات». وحواري«الفيلسوف»، «وهرموقراطس»[١].

ومع أفلاطون بدأت العلامات الأولى لنشؤ علم السياسة عبر كتبه الثلاثة «الجمهورية» و «القوانين» و «السياسي».

فلسفة أفلاطون السياسية

ابتكر أفلاطون مدينة «كاليبوس» وهي المدينة النموذج التي لخصها في عبارة: الفضيلةهي المعرفة، أي أن المجتمع السياسي لا يقوم من دون فضيلة والفضيلة لا يوفرها إلا أصحاب المعرفة وهم الفلاسفة والعلماء وبالتالي فهم الوحيدون الذين يحق لهم إدارة الحكم، باعتبار أن الشعب لا يصلح لأن يحكم نفسه بنفسه، وأن الساسة جهال ضعفاء وأنه على عاتق النظام الديمقراطي تقع مسؤولية كل الانهيارات التي تصيب المجتمع لتعدد الأحزاب السياسية ذات المصالح المتضاربة والمتناقضة.

وعند أفلاطون تقوم الدولة بوظيفتها على اساس تحقيق العدالة،

(١) تاريخ الفلسفة اليونانية ـ يوسف كرم. دار القلم، ص ٦٢ ـ ٦٧.

وذلك من خلال وضع المواطنين في مراكزهم الاجتماعية. وحتى يتوفر ذلك لا بد من ازالة العوائق التي تعترض الطريق إلى بلوغ مرتبة المواطن الصالح وذلك بتحقيق تكافؤ الفرص بين المواطنين، عبر فرض قيود على الطبقة الحاكمة، كحرمانها من الملكية الخاصة، ومن الزواج، وإعطائها مرتب ثابت، وبالتالي فإن العدالة تتحقق بالارتفاع بعقلية المواطن ورغبته نحو الكمال.

وفي كتاب «القوانين» يعتبر أفلاطون القانون هو الأساس والمعيار، وبدونه يسقط الإنسان إلى مرتبة الحيوان، وبالتالي فإنه يفترض لقيام الدولة الصالحة أن يلتزم بالقانون الجميع من الحكام والمواطنين على السواء.

أما أنظمة الحكم فحددها أفلاطون في كتبه في عدة أشكال. ففي «الجمهورية» نظام مدينة كاليبوس هو النظام الكامل ثم يليه النظام الأوليجاركي أي نظام حكم الأغنياء. ثم يليه نظام الحكم الديمقراطي ثم يليه نظام الطغيان وهو أسوأ الأنظمة.

أما في كتاب «السياسي» فهناك الدولة المثالية التي يحكمها فيلسوف، يتمتع بالمعرفة الكاملة فهذه الدولة لا تحتاج إلى قوانين. ولكن هذه الدولة صعبة الوجود، ثم تأتي في المرتبة الثانية الدولة التي يحكمها الفرد المثقف المستنير، ثم الدولة التي تحكمها الأقلية الأرستقراطية، ثم يليها الدولة التي تحكمها الديمقراطية المعتدلة ثم الدولة التي يحكمها الفرد الاستبدادي ثم حكم الأقلية الأوليجاركية، ثم حكم الديمقراطية المتطرفة.

أرسطوطاليس (٣٨٤ - ٣٢٢ ق. م).

ولد أرسطو في اسطاغيرا وكانت مدينة أيونية قديمة متاخمة لمقدونية على بحر إيجة، وكانت أسرته معروفة بالطب حيث كان أبوه

نيقوما خوس طبيباً للملك المقدوني امنتاس الثاني والد فيليبس المقدوني.

لما بلغ أرسطو الثامنة عشرة من عمره قدم أثينا ليستكمل علمه فدخل الأكاديمية وما لبث أن أمتاز بين أقرانه فسماه أفلاطون «العقل» لذكائه الخارق، و «القرّاء» لاطلاعه الواسع. ثم أقامه معلماً للخطابة فيما بعد، ولزم أرسطو الأكاديمية عشرين سنة حتى وفاة صاحبها. بعدها غادر أثينا قاصداً آسيا الصغرى حيث مكث هناك وتزوج، واستقدمه فيليبس الملك المقدوني ليعهد إليه بتثقيف ابنه الاسكندر البالغ من العمر ثلاث عشرة سنة، واستمر أرسطو بعناية الإسكندر لمدة أربع سنوات، حتى إذا ما بلغ السابعة عشرة شارك الجيش في حروبه وتباعدت الصلة بينهما.

وبعد أن نودي بالإسكندر ملكاً بعد أبيه عاد أرسطو إلى أثينا، في أواخر ٣٣٥ ق.م.

وفيها أنشأ مدرسة في ملعب رياضي يدعى لوقيون فعرفت بهذا الأسم، وكان من عادته أن يتمشى يومياً إلى جانب الملعب فيوافيه تلاميذه فيلقي عليهم الدروس وهو يمشي وهم يسيرون من حوله ولذلك لقب هو وأتباعه بالمشائين. ويقال إن دروسه كانت على نوعين: صباحية مخصصة لدروس الفلسفة ومسائية مخصصة لدروس الخطابة. ويذكر أنه أنشأ مكتبة كانت الأولى من نوعها في ذلك العصر، ومعملاً للتاريخ الطبيعي.

بعد اثنتي عشر عاماً اضطر أرسطو لأن يغادر أثينا على إثر موت الاسكندر سنة ٣٢٣ ق. م وقيام الأثينيين بمطاردة الأجانب ومنهم كان أرسطو مع أنه لم يعمل بالسياسة قط، ولجأ الأثينيون إلى حيلة فاتهموه بالإلحاد. فعهد بالمدرسة إلى تافراسطوس وغادر المدينة وقصد مدينة خلقيس في جزيرة آوبا. ومات هناك بمرض معوي عام ٣٢٢ ق.م.

مؤلفات أرسطو

تقسم مصنفات أرسطو إلى مرحلتين رئيستين:

مصنفات الشباب وقد ضاعت جميعها ولم يعرف عنها سوى عناوينها. وهي عبارة عن محاورات قصيرة على طريقة أفلاطون، ومنها: السياسي، السوفسطائي، منكسينوس، المأدبة، في البيان، إسكندر، في العدالة، في الشعراء، في الصحة، في الصلاة في اللذة.

أما مصنفات الكهولة فقد بقي معظمها وهي موضوعة في قالب تعليمي، وموضوعاتها تقسم إلى خمسة أبواب رئيسية:

١ ـ في المنطق، وهي: المقولات، العبارة، التحليلات الأولى، التحليلات الثانية، الجدل، الأغاليط.

٢ ـ الكتب الطبيعية وهي: السماع الطبيعي وهو في الطبيعة ـ السماء ـ الكون والفساد، الآثار العلوية، كتاب النفس، ثم الطبيعيات الصغرى.

٣ ـ الكتب الميتافيزقية.

٤ ـ الكتب الخلقية والسياسية وهي: الأخلاق الأوديمية ـ الأخلاق النيقوماخية ـ الأخلاق الكبرى ـ كتاب السياسة، وكتاب النظم السياسية.

٥ ـ الكتب الفنية، وهي: الخطابة ـ الشعر.

فلسفة أرسطوطاليس السياسية

وما يهمنا من فلسفة أرسطو في هذا البحث هي الفلسفة السياسية عنده ولذلك سنقتصر على قراءة كتابيه السياسة والنظم السياسية.

يبدأ أرسطو أولاً بتحديد الجماعة السياسية، بتقسيمها إلى عدة مستويات فالأسرة هي أول جماعة، الغرض من قيامها إشباع الحاجات

اليومية، تليها جماعة القرية التي هي اجتماع عدة أسر والغرض من قيامها توفير شيء أكثر من الحاجات اليومية، تليها جماعة المدينة التي هي اجتماع عدة قرى، في هيئة تامة هي المدينة، وهي ارقي الجماعات ومهمة المدينة توفير الأسباب لكي يبلغ افرادها سعادتهم. فالمدينة تعاون الأفراد على اكتساب الفضائل، وتقدم لهم فرصاً لمزاولة هذه الفضائل في العلاقات الاجتماعية المتعددة. وقيمة المدينة تقاس بقيمة أفرادها، من حيث العلم والخلق ليس غير.

وهذه المدينة ليست وليدة العرف كما يدعي السفسطائيون ولكنها قائمة على الطبيعة الإنسانية النازعة إلى الكمال. والقانون ليس حداً عرفياً للحرية، ولكنه وسيلة لممارسة الحرية، وفيه نجاة الأفراد من الفوضى والفناء. (١)

ويستعرض أرسطو في المقالة الثانية من كتاب السياسة ما تصوره المفكرون من حكومات مثلى، وما عرف من الدساتير والشرائع، ليستخلص أحسن الآراء، ويبدأ بنقد جمهورية أفلاطون. فينكر أن الدولة يجب أن تكون متحدة أعظم اتحاد، إلى حد أن يضحي في سبيلها بالأسرة والملكية فالوحدة الحقيقية عند أرسطو هي الفرد أما الدولة فكثرة وكثرة متنوعة تتحقق وحدتها بالتربية لا بالوسائل التي أشار إليها أفلاطون.

والأسرة والملكية صادرتان عن الطبيعة لا عن الوضع والعرف، فإلغاؤهما عمل معارض للطبيعة وهو عمل معارض للدولة في نفس الوقت، وبالتالي فإن إلغاء الفرد والملكية الخاصة عمل مستحيل.

أما الحكومة فتختلف أشكالها باختلاف الغاية التي ترمي إليها.

---

(١) تاريخ الفلسفة اليونانية، يوسف كرم ص. ٢٠٢.

فالحكومة صالحة متى كانت غايتها خير المجموع، وفاسدة متى توخى الحكام مصالحهم الخاصة.

وعلى هذا فإن أرسطو يصنف الحكومات إلى صنفين.

١ ـ الحكومات الصالحة: وهي الحكومات الملكية والحكومات الأرستقراطية والحكومات الديمقراطية.

٢ ـ والحكومات الفاسدة: وهي حكومات الطغيان والحكومات الأوليغركية والحكومات الديماغوغية

فالملكية حكومة الفرد الفاضل العادل، والارستقراطية حكومة الأقلية الفاضلة العادلة، والديمقراطية حكومة الأغلبية الفقيرة، تمتاز بالحرية والمساواة واتباع الدستور.

أما حكومة الطغيان فهي حكومة الفرد الظالم، والأوليغركية حكومة الأغنياء والأعيان. والديماغوغية حكومة العامة التي تتبع اهواءها المتقلبة.

أما الحكومة المثلى بالنسبة لأرسطو هي حكومة «بوليتية» أي الدستورية وهي مؤلفة من أصحاب الثروة العقارية المتوسطة يعيشون من عملهم ولا يملكون فراغاً من الوقت ويخضعون للدستور، هذه الحكومة هي مزيج من الأوليغركية والديمقراطية مع مراعاة أن أي حكومة لكي تكون صالحة لشعب ما، يجب أن تقوم على اعتبار طبيعة هذا الشعب.

وصلاح أي مدينة مرتبط بثلاثة شروط:

الشرط الأول: خاص بعدد السكان فلا يجب أن ينقص عدد السكان عن الحد الأدنى الضروري لكفاية المدينة نفسها، ولا يتعدى العدد الحد الاقصى وحدده أرسطو بمائة ألف. فإذا تخطى عدد السكان هذين الحدين فإن نظام المدينة يختل ويتعرض للإنهيار.

والشرط الثاني: ويتعلق بمساحة المدينة بحيث تقوم بحاجة الأهالي من دون الوصول بهم إلى الترف ويجب أن تكون منيعة ضد الأعداء ويسهل الدفاع عنها وقريبة من البحر لتسهيل التموين وينصح أرسطو بجعل جزء من الأرض ملكاً للدولة.

والشرط الثالث: خاص بوظائف الدولة، أو الأعمال التي يقوم بها أهل المدينة، وهي ثماني فئات ١ ـ المزارعون ـ ٢ ـ الصناعيون ـ ٣ ـ التجار ـ ٤ ـ الجند والعسكر ـ ٥ ـ الطبقة الغنية ـ ٦ ـ الكهنة ـ الحكام ـ الموظفون.

وكل فئة من هذه الفئات تقوم بعملها بكفاءة خاصة، بحيث لا تتداخل كل فئة مع عمل فئة أخرى.

الفارابي (٢٦٠ هـ ـ ٣٣٩ هـ)

هو أبو النصر محمد بن محمد بن أوزلغ بن طرخان، فارسي الأصل، ولد في وسيج بمقاطعة فاراب في خراسان.

وتاريخ ولادة الفارابي غير معروفة، ولكن كما تذكر كتب التراجم أن الفارابي توفي عام ٣٣٩ هـ عن ثمانين عاماً فتكون سنة ولادته ٢٦٠ هـ.

رحل الفارابي في صباه من مسقط رأسه إلى بغداد فتعلم بها ثم التحق بجيش سيف الدولة الحمداني في حلب. وصحبه إلى دمشق وأقام ببلاطه مدة ثم اعتزل وعاش عيشة الحكماء إلى أن توفي اثناء انتقاله من حلب إلى دمشق.

ويذكر ابن أبي أصيبعة في عيون الأنباء ج٢ ص ١٣٤ : أن الفارابي كان ناطوراً في بستان في دمشق وكان دائم الاشتغال بالفلسفة وكان فقيراً ويستضيء في الليل أثناء قراءته بالقناديل التي يحملها حراس المدينة.

ويذكر ابن أبي أصيبعة أنه«لما توفي الفارابي تزيا سيف الدولة بزي صوفي ورثاه على قبره وصلى عليه صلاة الجنازة في خمسة عشر رجلاً من خاصته».

مؤلفات الفارابي

يعتبر الفارابي من أغزر فلاسفة الإسلام انتاجاً وأكثرهم تنوعاً، فقد كتب في الفلسفة والرياضيات والتنجيم والكيمياء والعرافة والموسيقي وغيرها من العلوم والفنون، إضافة إلى شروحه المتعددة على مصنفات أرسطو وغيره من فلاسفة اليونان.

وقد بلغت مؤلفات الفارابي من الكثرة ما جعل المستشرق الألماني «شتاينشنايدر» «Steinschneider» يخصص لها مجلداً ضخماً، ولكن لم يصل إلينا من هذه المؤلفات سوى عدد قليل حصره بروكلمان بأربعين رسالة، منها اثنتان وثلاثون رسالة وصلت إلينا في أصلها العربي، وست رسائل مترجمة إلى العبرية، ورسالتان مترجمتان إلى اللاتينية[1].

ومن أهم مؤلفات الفارابي المطبوعة بمختلف الفنون والمقاصد:

أولاً: في المنطق:

١ ـ شرح العبارة لأرسطوطاليس.
٢ ـ رسالة صدر بها كتاب التوطئة في المنطق.
٣ ـ كتاب القياس الصغير لأرسطوطاليس.
٤ ـ شرح كتاب إيساغوجي لفرفوريوس.
٥ ـ شرح كتاب المقولات لأرسطو.

---

(١) الفارابي حياته، آثاره، فلسفته ـ اعداد أحمد شمس الدين دار الكتب العلمية، ص ٤٦.

٦ ـ كتاب الألفاظ المستعملة في المنطق.
٧ ـ فصول يحتاج إليها في صناعة المنطق.
٨ ـ كتاب شرائط اليقين.

ثانياً: في الشعر والخطابة

١ ـ رسالة في قوانين صناعة الشعر.
٢ ـ كتاب الشعر.

ثالثاً: في نظرية المعرفة

١ ـ كتاب إحصاء العلوم.
٢ ـ كتاب الحروف.
٣ ـ رسالة في معاني العقل.

رابعاً: في الفلسفة العامة

١ ـ مقالة في أغراض ما بعد الطبيعة.
٢ ـ رسالة في إثبات المفارقات.
٣ ـ كتاب التعليقات.
٤ ـ عيون المسائل.
٥ ـ رسالة فيما ينبغي أن يقدم قبل تعلم الفلسفة.
٦ ـ رسالة الدعاوى القلبية.
٧ ـ فلسفة أرسطو طاليس.
٨ ـ فلسفة أفلاطون.
٩ ـ الجمع بين رأيي الحكيمين أفلاطون وأرسطو طاليس.
١٠ ـ شرح رسالة زينون الكبير.
١١ ـ نصوص الحكم.
١٢ ـ المسائل الفلسفية والأجوبة عنها.
١٣ ـ رسالة أفلاطون في الرد على من قال بتلاشي الإنسان.

١٤ ـ رسالة في الرد على يحيى النحوي.

خامساً: في الفلسفة المذهبية

١ ـ دعاء عظيم.

٢ ـ كتاب الملّة

سادساً: في الطبيعيات والنجوم والكيمياء

١ ـ كلام في الخلاء.

٢ ـ نكت فيما يصح وفيما لا يصح من أحكام النجوم.

٣ ـ مقالة في وجوب صناعة الكيمياء.

٤ ـ المقالات الرفيعة في أصول علم الطبيعة.

سابعاً: في الرياضيات

١ ـ شرح المستغلق في مصادرات المقالة الأولى والخامسة من اقليدس.

٢ ـ في بيان تساوي الزوايا الثلاث للمثلث القائمتين.

ثامناً: في الطب

١ ـ رسالة في صناعة الصب.

تاسعاً: في الموسيقى

١ ـ كتاب الموسيقى الكبير.

عاشراً: في الأخلاق والسياسة

١ ـ آراء أهل المدينة الفاضلة.

٢ ـ الفصول المدنية (الفصول المنتزعة).

٣ ـ في تحصيل السعادة (نيل السعادات).

٤ ـ التنبيه على سبيل السعادة أو رسالة السعادة.

٥ ـ رسالة في السياسة (جوامع السياسة).

٦ ـ السياسة المدنية.
٧ ـ تلخيص نواميس أفلاطون.

وهـذا النوع الأخـير من مؤلفات الفـارابي هو الـذي سنتنـاولـه بالتفصيل في هذا البحث.

فلسفة الفارابي السياسية

يربط الفارابي فلسفته السياسية على صعيد الممارسة ما بين الأخلاق والسياسة. فالمدينة التي لا تقوم على الأخلاق تتحول إلى مدينة جاهلة أو فاسقة أو متبدلة أو ضالة.

والسياسة عند الفارابي نوعان: اخلاقية ومدنية فالسياسة الأخلاقية تحدد علاقة الفرد وواجباته تجاه نفسه وتجاه الآخرين.

أما واجبات الفرد تجاه نفسه فتتحدد:

بسعي الإنسان للمال من دون الإخلال بالدين والمروؤة والعرض.

وعليه حفظ أسراره الخاصة فمتى خرج الر من يده كان عرضة للنقض والفناء.

وعليه السعي لإحراز الجاه الذي هو أرقى وأعلى من كسب المال، لأن الجاه يأتي بالمال بينما المال ليس بالضرورة أن يأتي بالجاه.

وعليه مشاورة غيره في آرائه على أن تكون هذه المشاورة مع ذوي النبل وذوي العقل والألباب والنفوس الكبيرة.

أما واجبات الفرد تجاه الآخرين، فهؤلاء الغير يقسمون إلى ثلاث فئات.

١ ـ الرؤساء.
٢ ـ الأكفاء.
٣ ـ من هم دون.

فمن واجبات المرء تجاه رئيسه: أن يلازمه وأن يمدحه في حضوره أو غيبتـه، وأن يكتم أسراره، وأن يـطلب النفـع لـه، وأن يضحي

لأجله، وأن لا يتخذ لنفسه ما يتفرد الرئيس به.

ومن واجبات المرء تجاه أكفائه: وهم إما أصدقاء أو أعداء، أو ليسوا بأصدقاء ولا أعداء.

والأصدقاء إما أن يكونوا مخلصين تجب ملاطفتهم وتعهدهم بالهدايا أو يكونوا متصنعين، تجب مجاملتهم والصبر عليهم.

والأعداء إما أن يكونوا ذوي حقد وضغينة فيجب الاحتراس منهم أو يكونوا حساداً فيجب إغاظتهم وإيذاءهم.

أما من ليس بعدو ولا صديق، فقد يكونوا من النصحاء فيجب سماع قولهم، وقد يكونوا من الصفحاء فيجب مدحهم، وقد يكونوا من السفهاء فيجب استعمال الحلم معهم.

أما السياسة المدنية عند الفارابي فنجدها في كتابين أساسيين هما «آراء أهل المدينة الفاضلة» و«السياسة المدنية».

«فالإنسان دائماً في احتياج إلى الاجتماع والتعاون، حيث كل واحد من الناس مفطور على أنه محتاج في قوامه وفي أن يبلغ أفضل كمالاته إلى أشياء كثيرة لا يمكنه أن يقوم بها كلها هو وحده، بل يحتاج إلى قوم يقوم كل واحد منهم بشيء مما يحتاج إليه»[١]

إذن فقد نشأت الجماعات الإنسانية عن حاجة الأفراد إلى التعاون.

ويقسم الفارابي هذه الجماعات بحسب روابطها إلى نوعين: «الكاملة وغير الكاملة. والكاملة ثلاث: عظمى ووسطى وصغرى، فالعظمى هي اجتماعات الجماعة كلها في المعمورة، والوسطى هي اجتماع أمة في جزء من المعمورة، والصغرى هي اجتماع أهل مدينة في

(١) الفارابي: آراء أهل المدينة الفاضلة، الفصل ٢٦، ص ١١٧، ١١٩. دار المشرق.

جزء من مسكن أمة.

أما الاجتماعات غير الكاملة فهي: اجتماع أهل القرية ثم أهل المحلة، ثم الاجتماع في سكة ثم في منزل، والخير الأفضل والكمال الأقصى إنما ينال أولاً بالمدينة، لا بالاجتماع الذي هو أنقص منها»[٢].

لقد تحدث الفارابي بتأثير من الإسلام، عن إمكان قيام مجتمع يشمل المعمورة بأكملها، وعن إمكانية نيل السعادة في مجتمع كهذا، ولم يقتصر كما فعل أفلاطون على جمهوريته المحدودة المساحة والسكان، وبهذا تخطى الفارابي بتصوره السياسي أفلاطون وأرسطو وغيرهم من اليونانيين الذين لم ينظروا إلى الأمور السياسية إلا من منظار مجتمعاتهم المحلية الضيقة.

ثم ينتقل الفارابي من الحديث عن أنواع الاجتماعات إلى الحديث عن المدينة باعتبارها أصغر مجتمع كامل، ويقسمها إلى مدينة فاضلة ومدينة غير فاضلة.

«أما المدينة الفاضلة فهي كالبدن التام الصحيح. وكما أن البدن أعضاؤه مختلفة ومتفاضلة وفيه عضو واحد رئيس وهو القلب وأعضاؤه تقرب مراتبها أو تبعد عن ذلك الرئيس، كذلك المدينة فيها إنسان هو الرئيس وأخرون يقربون أو يبعدون عنه بحسب تفاوتهم بالفطرة وتفاضلهم بالهيئات، غير أن بين البدن والمدينة فرقاً، فأفعال الأول طبيعية، بينما أفعال أهل المدينة إرادية»[١].

«والرئيس الأول لهذه المدينة الفاضلة يجب أن تجتمع فيه اثنتا عشر خصلة. وهي: أن يكون تام الأعضاء قويها جيد الفهم والتصور لكل

---

(١) نفس المصدر السابق. ص ١١٧ ـ ١١٨.

(٢) نفس المصدر السابق ص ١١٩.

ما يقال، جيد الحفظ لما يفهمه ويراه ويسمعه ويدركه، جيد الفطنة ذكياً. حسن العبارة، محباً للتعليم والاستفادة منقاداً له، غير شره على المأكول والمشروب والمنكوح، محباً للصدق وأهله مبغضاً للكذب وأهله كبير النفس محباً للكرامة. معرضاً عن الدرهم والدينار وسائر أعراض الدنيا محباً للعدل وأهله مبغضاً للجور والظلم وأهلهما، قوي العزيمة جسوراً مقداماً»[1].

فإذا لم تجتمع هذه الشروط في شخص واحد، ووجد اثنان أحدهما حكم والثاني فيه الشرائط الباقية، كانا هما رئيسين، فإذا تفرقت هذه الشّرائط في ستة اشخاص، وكانوا متلائمين اشتركوا في حكم المدينة، أما إذا غابت الحكمة فلا تلبث المدينة أن تهلك.

أما صفات المرؤوسين فهي اثنتان: العلم والفضيلة. ومصير المدينة التي تتمتع بهذه الصفات أي صفات الرئيس وصفات المرؤوسين، هو خلود نفوسهم بعد الموت واستغنائها عن المادة. وتتوالى النفوس الفاضلة فتلتذ بمشاهدة بعضها بعضاً، وكلما ازدادت عدداً ازدادت سعادة.

ويضع الفارابي مقابل هذه المدينة الفاضلة أربع مدن غير فاضلة، وهي: المدينة الجاهلة، والمدينة الفاسقة، والمدينة المتبدلة، والمدينة الضالة.

أما المدينة الجاهلة، وهي التي أهلها لم يطلبوا السعادة من حيث يجب أن تطلب، أي بالعلم والفضيلة.

أما المدينة الفاسقة: فهي التي أهلها يعلمون كل ما يعلمه أهل المدينة الفاضلة لكن أفعالهم أفعال أهل المدينة الجاهلة.

أما المدينة المبدلة: وهي التي بدل أهلها أراءهم وأفعالهم بعد أن

---

(١) نفس المصدر السابق ص ١٢٩.

كانت مطابقة لآراء وأفعال المدينة الفاضلة.

أما المدينة الضالة: وهي التي يضللها رئيسها بادعائه تلقي الوحي من غير أن يكون كذلك.

أما مصير أهل المدن المضادة للمدينة الفاضلة، فيؤول إلى الشقاء والانحلال والوصول إلى العدم على مثال ما يكون عليه البهائم والسباع والأفاعي.

ابن خلدون (٧٣٢ هـ - ٨٠٨ هـ)

هو عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، ولد في تونس عام ٧٣٢ هـ وفيها نشأ وتلقى العلوم المعروفة في عصره، وتنقل في بلاد كثيرة في شبابه، ثم نزل على السلطان أبي عنان المريني صاحب تلمسان سنة ٧٥٥ هـ، الذي ما لبث أن اعتقله وحبسه بسبب وشاية من أحد المقربين له.

وبقي ابن خلدون معتقلاً حتى وفاة السلطان أبي عنان المريني، فأفرج عنه الوزير ابن عمر، وخلع عليه وعوضه خيراً ثم عينه السلطان أبو سالم المريني كاتباً للسر في السلطنة.

وفي عام ٧٦٤ سافر ابن خلدون إلى الأندلس وقصد غرناطة ونزل على سلطانها أبي عبدالله الأحمر الذي بالغ في إكرامه، وفي عام ٧٦٥ رحل إلى «كاستيل» «قشتالة» فمكث برهة قصيرة ثم عاد إلى غرناطة فأقطعه السلطان أبو عبدالله الأحمر بلداً وصيره بذلك من الأمراء الملتزمين فلم يمكث بهذا المنصب سوى مدة قصيرة وعاد إلى بجاية فاستقبله السلطان أبو عبدالله الأحمر وأسند إليه رياسة حكومته.

ثم استقر ابن خلدون في تلمسان فأقام بها مع عائلته ونزل في قلعة بني سلامة من بلاد «بني توجين» فأقام بها أربع سنوات. في هذه الفترة شرع في كتابة مؤلفه الضخم «التاريخ» فأكمل المقدمة ودوّن بعض

فصول من التاريخ، وكان ذلك في أواخر العقد الثامن من القرن الثامن للهجرة، وقبل وفاته بثلاثين عاماً، وقد شارف على الخمسين من عمره.

في عام ٧٨٠ هـ عاد ابن خلدون إلى مسقط رأسه تونس ومكث فيها أربع سنوات حتى ٧٨٤ هـ فانتقل بعدها إلى القاهرة وجلس للتدريس في الأزهر، واتصل بسلطان مصر برقوق فقربه وأكرمه وولاه قضاء المالكية عام ٧٨٦ هـ. وكان قد بعث يستقدم عائلته من تونس ليقيموا معه فغرقوا جميعاً في البحر. وهذا مما أوقعه في حزن شديد ودفعه إلى الاستقالة من منصبه والانقطاع للتدريس ومتابعة تأليف كتابه التاريخ حتى أتمه في العام ٧٩٧ هـ. وهو في الخامسة والستين من عمره، وقد قضى في كتابته نحو خمسة عشر عاماً وما زل مقيماً في مصر حتى توفى بها عام ٨٠٨ هـ. عن عمر يناهز ٧٦ عاماً.

مؤلفات ابن خلدون

اشتهر ابن خلدون بين الفلاسفة والعلماء والمفكرين بكتاب واحد، بل بجزء من هذا الكتاب وهي «المقدمة» أما كتابه فهو «كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر».

والكتاب الثاني لابن خلدون هو عبارة عن مذكرات شخصية كان يدونها يوماً فيوماً وأطلق عليها اسم «التعريفات بابن خلدون» وفيها ترجمته ونسبه وتاريخ أسلافه، وشرح في هذه المذكرات ما عاناه في حياته وتتضمن هذه المذكرات مراسلات وقصائد نظمها. وتنتهي حوادث هذه المذكرات سنة ٨٠٧ أي قبل وفاته بعام واحد.

وما يهمنا هنا هو كتابه الأول التاريخ أو «كتاب العبر»وما يهمنا من هذا الكتاب المقدمة، فقد وضع ابن خلدون في هذه المقدمة عصارة

فكره وفلسفته، فقد أتى بمباحث كانت جديدة في عصره حيث سماها هو «في العمـران» بينما تسمى في عصرنـا الحـالي، بـالعلوم الاجتـماعيـة والسياسية والاقتصاد السياسي والاقتصاد الاجتماعي وفلسفة التاريـخ والقانون العام.

فقد سبق ابن خلدون بمباحثه هذه معظم كتاب أوروبا، حتى أن الكثير من الكتاب والباحثين يعتبرون «هيجل» الألماني و «ماكيـافللي» الايطالي و «مونتسكيـو» وأوغست كومت «الفـرنسيين»، و «جيبـون» الانجليزي من تلامذته.

وقد قسم ابن خلدون مقدمته إلى ستة فصول.

الفصل الأول: في قسط العمران من الأرض وما فيها من الأقاليم وتأثير الهواء في ألوان البشر وأخلاقهم، واختلاف أحوال العمران من الخصب والجـوع ومـا ينشـأ عن ذلـك من الآثـار في أبـدان البشر وأخلاقهم.

الفصل الثاني: في العمران البدوي والأمم الوحشية والقبائل، وما يعرض في ذلك من المباحث في طبيعة البداوة والحضارة. والفرق بينهما من حيث الأنساب والعصبية والرياسة والحسب والملك والسياسة.

الفصـل الثالث: في الـدول العامـة، والملك والخلافـة والمراتب السلطانية، وأسباب السيادة وتشييد الدول وكيف تحفظ الإمارة وشروط السلطة والخلافة وطبـائع الملك ومعنى البيعـة وولاية العهـد ومراتب السلطان ودواوين الدولة وجندها وأساطيلها وشاراتها وقـواعد الجنـد والحرب وأسباب ثبوت الدولة وسقوطها.

الفصـل الرابـع: في البلدان والأمصار وسـائر العمـران والمدن والهياكل ونسبتها إلى الدول. وما تجب مراعاته في وضعها من حيث البر والبحر، وفي بناء المساجد والبيوت ونسبتها إلى الدولة الإسلامية.

الفصل الخامس: في المعاش ووجوهه من الكسب والصناعات، وفي مسائل الرزق والكسب وأنه قيمة الأعمال البشرية، وفي أصناف المعاش ومذاهبه ونسبة ذلك إلى طبيعة العمران، ووصف أمهات الصناعات كالزراعة، والعمارة، والنسيج والتوليد والطب والوراقة والغناء وغيره.

الفصل السادس: في العلوم وأصنافها والتعليم وطرقه وسائر وجوهه، ونسبة التعليم إلى الحضارة، والكلام في كل علم على حدة وتاريخه وشروطه من علوم القرآن والحديث والفقه. فالعلوم هي: اللسانية والطبيعية والرياضية والطبية. والآداب: هي الشعر والتاريخ والإلهيات وعلم النفس وعلم النجوم والعلوم السحرية.

فلسفة ابن خلدون الاجتماعية والسياسية.

قسم ابن خلدون ظواهر المدنية إلى ظواهر خارجة عن الاجتماع، كالظواهر الطبيعية مثل العقائد الدينية والطقس والبيئة، وظواهر داخلة في الاجتماع وهي التي تنشأ في حضن الجماعة وتؤثر فيها بقوتها.

والإنسان عند ابن خلدون هو كائن ميال للاجتماع بفطرته، والجماعة ليست إلا وسيلة لسعادة الفرد. وميز بين الجماعات الإنسانية والجماعات الحيوانية فقال إن الدافع لاجتماع الحيوان الفطرة والغريزة فقط بينما اجتماع الإنسان فالدافع إليه، الفطرة والعقل والتفكير معاً.

ورأى ابن خلدون عدم ضرورة وجود أديان سماوية لتأسيس الممالك والدول وذلك لأن هناك ممالك كثيرة تعيش بغير دين سماوي وأن لها ملكاً واسعاً وسلطاناً وأنظمة وقوانين وجيوشاً ومدناً عامرة آهلة بينما الأمم التي انتشرت فيها الأديان السماوية تعد أقلية بجانب الأمم الأخرى، غير أنه إن لم يكن الدين السماوي ضرورياً لتأسيس الممالك إلا أنه ضروري لتأسيس الممالك الراقية القريبة من الكمال، إذ إن الممالك التي تشاد على

اساس الدين السماوي تجمع بين منافع الدنيا ومنافع الآخرة.

والعنصر الثاني من ظواهر المدنية الخارجة عن الاجتماع هو الطقس.فعند ابن خلدون إن قاطني الأقاليم المتطرفة في البرودة الشديدة والحرارة القصوى لا نصيب لهم في المدنية، وأن الإقليم الرابع وهو أشد الأقاليم اعتدالاً في البرد والحر هو أوفق الأقاليم للعمران والمدنية ونمو العلوم وظهور الأديان وانتظام الأحكام والقوانين وقد عين ابن خلدون هذا الإقليم ببلاد سوريا وبلاد العراق.

والعنصر الثالث من العناصر الخارجة عن الاجتماع وهو الوسط الجغرافي أو البيئة فالبيئة الخصبة تغني الفرد عن السعي في سبيل العيش وتغريه بالفراغ واتباع الأهواء وتميت في نفسه صفات الشجاعة والمحاربة، وإن هي جدبت استحثه الفقر على الجد والاجتهاد والمثابرة وولد فيه روح الكفاح والتنازع في سبيل الحياة.

أما ظواهر المدنية الداخلة في الاجتماع وهي التي تنشأ في حضن المجتمع، فقد قرر ابن خلدون أن كل جماعة تمر بثلاثة أطوار.

١ - الطور البدوي.

٢ - الطور الغزوي.

٣ - الطور الحضري.

فالحياة البدوية هي الطور الأول لكل جماعة أو قبيلة وهي لا تنافي الطبيعة البشرية، ويمتاز البدو بالحركة الدائمة والتنقل وهم يعيشون من القطعان التي يرعونها. والعصبية هي قوام القبيلة وقوتها وهي التي تدفع بالقبيلة إلى الألفة والاتحاد والدفاع عن المصالح المشتركة، ومن دون العصبية لا تستطيع القبيلة الحياة أو المقاومة وأن القبائل ذات العصبية هي وحدها دون سواها القادرة على الفتح والامتلاك.

وتنتقل القبيلة إلى الطور الثاني وهو طور الغزو وتأسيس الدولة،

حيث تنهض فتغزو أمماً أضعف منها ومتحضرة، ثم تتحضر هي أيضاً فتمدن المدن وتمصر الأمصار وتدون الدواوين وتقنن القوانين وتصنع العلوم وتنشيء الفنون الجميلة وتميل إلى الملاذ والمسرات وتنسى الحرب والكفاح فتضعف شيئاً فشيئاً إلى أن تتغلب عليها قبيلة غازية فتقهرها وتسود عليها وهذا هو الطور الثالث.

وذكر ابن خلدون ثلاثة أسباب لسقوط الأمم القوية وهي: ضعف الإشراف، وتشدد الجنود المرتزقة، ثم الترف، وقال إن الدولة لا يطول أجلها أكثر من ثلاثة أجيال وأن لها كالفرد طفولة وشباباً وشيخوخة، لكن هذا لا يمنع الدولة من السقوط في أول أدوار حياتها.

بين ابن خلدون وماكياڤللي.

إن كثيراً من نظريات وآراء ابن خلدون في السيادة والتغلب والفتح تذكرنا بنظريات ماكياڤللي في كتابه «الأمير» فأوجه الشبه بين ظروف حياة كل من ابن خلدون وماكياڤللي كثيرة جداً مع العلم أن الفرق بين تاريخ وفاة كل واحد منهما قرن واحد. توفي ابن خلدون عام ٨٠٨ هـ ١٤٠٦ م، وتوفي ماكياڤللي عام ١٥٢٧ م.

وإذا أردنا عقد مقارنة بين فلسفة ابن خلدون الاجتماعية والسياسية وبين فلسفة ماكياڤللي نجد التالي:

الدافع الذي بعث ماكياڤللي لكتابة مؤلفه «الأمير» وتدوين القواعد السياسية، ما شاهده من اختلال الأحوال في أوروبا وما قاساه بنفسه من المشقة والعذاب في تدبير الدولة وملافاة الأخطار المحدقة بها، والمناصب التي تقلب فيها والأشخاص الذين احتك بهم، فقد كان كاتب سر الدولة يطلع على دخائلها ويرى ما يحدق بذلك من الأخطار والمفاسد والدسائس. فدرس ذلك كله وبنى عليه آراءه في كيف يستطيع الأمير بسط سيادته، وضرب الأمثلة على ذلك مما شاهده من أحوال

معاصريه أو قرأه من تاريخ الدول الماضية، لكنه في كل حال لم يتعد تاريخ أوروبا القديم والحديث ولم يذكر من الشرقيين غير الأتراك.

أما ابن خلدون فقد عاش في بلاد المغرب وتقلب في مناصبها السياسية والعلمية وعاصر كثيراً من أحداثها وتقلباتها في مراكش وتونس والأندلس ومصر. واطلع على دخائلها وأسرارها. وتولى كتابة السر في بعضها، ونال مقاماً رفيعاً ونفوذاً عظيماً وتقلبت عليه أحوال شتى ونكب بموت أهله فزادته المصائب عبرة وصقلت قريحته الفلسفية.

وقد تشابه الفيلسوفان في كثير من أرائهما في الوزارة وأحوال الموالي والمصطنعين وتجنب المتملقين، وفي تعليل أسباب سقوط الدولة ونهوضها ووجوب الاعتماد على الجند. . . الخ.

هذا باختصار ما اتفقا عليه من آراء حول الدولة والفكر السياسي، أما نقاط التناقض والاختلاف فكثيرة وأهمها:

قسم مكيافللي الدول إلى جمهوريات وملكيات أما ابن خلدون فلا نجد للجمهورية ذكراً في كتابه ولكنه يقسم الدول إلى خلافة وملك وسلطان وإمارة.

يرى ابن خلدون أن الممالك التي تشاد على اساس الدين السماوي هي ممالك راقية قريبة من الكمال. لأن المملكة التي تشاد على اساس النبوة تجمع بين منافع الدنيا ومنافع الدين.

أما ماكيافللي فيرى أن الدين ليس إلا وسيلة لبقاء «الأمير» في السلطة، ويفضل الأديان الرومانية واليونانية على الدين المسيحي في قيام الدولة، لأن هذا الدين يدعو الناس لاعتناق الأخلاق الخاشعة والمستضعفة والتي يسميها «أخلاق نسوية».

أما حول كيفية حفظ سيادة الدولة وسلطة الأمير أو السلطان فيرى ماكيافللي أن الوسيلة الفضلى هي ايقاع الهيبة والرعب في قلوب الرعية

إذ ينبغي للأمير أن يكون مهاباً، وعلى الأمير أن يقود جيشه وأن يعرف بالقسوة لأنه بدونها لا يستطيع أن يحافظ على اتحاد جيشه وطاعته وعلى الأمير أن يتعلم كيف يقلل من طيبته وكيف يستعمل الخير أو ضده في الأوقات والأحوال المناسبة.

ومن الأفضل للأمير أن يكون بخيلاً من أن يكون مسرفاً إذ لا ينبغي للملك أن يهتم باتهامه بالبخل إذا كان يريد أن لا يسرق شعبه... وأن لا يصير فقيراً.. فإن رذيلة البخل من الرذائل التي تسهل له الأحتفاظ بالسلطة.

وينبغي للأمير أن تكون فيه طبيعتا الأسد والثعلب فيفتك كالأسد ويحتال كالثعلب.

وليس من الضروري للأمير أن يتصف حقيقة بكل الفضائل ولكن من الضروري أن يذاع عنه الاتصاف بها، فالاتصاف بكل الفضائل خطر جداً ولكن الظهور بالتحلي بها نافع.

وينهي ماكيافللي كلامه حول صفات الأمير «من الخير لك أن تظهر بالتقوى والأمانة وحب الإنسانية والدين والإخلاص، ولكن ينبغي أن تكون متنبهاً بحيث إذا اضطررت للتحول إلى الصفات الأخرى كان ذلك بدون مشقة».

هذا أهم ما يراه ماكيافللي وسيلة لتأييد سلطة الأمير، أما ابن خلدون فيناقضه في أكثر المواضع.

يرى ابن خلدون أن إرهاف الحد مضر بالملك مفسد له وأنه إنما يملك الأمير الرعية بالرفق واللين فأشار بحسن الملكة والابتعاد عن العسف، يقول: «إن حسن الملكة تقوم بالرفق فإن الملك إذا كان قاهراً باطشاً بالعقوبات منقباً عن عورات الناس وتعديد ذنوبهم شملهم الخوف والذل ولاذوا منه بالكذب والمكر والخديعة، فتخلقوا بها

وفسدت بصائرهم وأخلاقهم، وربما خذلوه في مواطن الحروب والمدافعات، ففسدت الحماية بفساد النيات. وربما أجمعوا على قتله لذلك فتفسد الدولة ويخرب السياج، وإن دام أمره عليهم وقهره فسدت العصبية لما قلناه أولاً وفسد السياج من أصله بالعجز عن الحماية. وإذا كان رفيقاً بهم متجاوزاً عن سيئاتهم استناموا إليه ولاذوا به وأشربوا محبته واستماتوا دونه في محاربة أعدائه فاستقام الأمر من كل جانب. وأما توابع حسن الملكة فهي النعمة عليهم والمدافعة عنهم، فالمدافعة بها تتم حقيقة الملك، وأما النعمة عليهم والاحسان لهم فمن جملة الرفق بهم والنظر لهم في معاشهم وهي أصل كبير في التحبب إلى الرعية».

ويرى ابن خلدون أن من علامات الملك التنافس في الخلال الحميدة قال: «إن خلال الخير هي التي تناسب السياسة والملك، لأن المجد له أصل ينبني عليه وتتحقق به حقيقته وهو العصبية والعشيرة. وفرع يتم وجوده ويكمله وهو الخلال، وإذا كان الملك غاية للعصبية فهو غاية لفروعها ومتمماتها وهي الخلال. لأن وجوده دون متمماته كوجود شخص مقطوع الأعضاء أو ظهوره عرياناً بين الناس. وإذا كان وجود العصبية فقط في غير انتحال الخلال الحميدة نقصاً في أهل البيوت والأحساب فما ظنك بأهل الملك الذي هو غاية لكل مجد ونهاية لكل حسب؟ وأيضاً فالسياسة والملك هي كفالة للخلق وخلافة لله في العباد لتنفيذ أحكامه فيهم. وأحكام الله في خلقه وعباده هي بالخير ومراعاة المصالح».

الفصل الثاني

نيقولو ماكيافللي

١ ـ عصره وبيئته

٢ ـ سيرته

٣ ـ آثاره ومؤلفاته

عصر ماكيافللي وبيئته

لقد أجمع على تسمية العصر الذي عاشت به أوروبا في القرن الخامس عشر، عصر النهضة وتفسخ النظام الاقطاعي، وعصر التحولات الكبرى في بنية المجتمع الأوروبي على كافة المستويات الاجتماعية، والسياسية، والاقتصادية الثقافية العلمية . . الخ.

ففي منتصف القرن الخامس عشر (١٤٥٣م) تعرضت أوروبا لتحولات هامة، فقد سيطر الأتراك العثمانيون على القسطنطينية وأنهوا امبراطورية« روما الشرقية» فبدأت الثقافة اليونانية تتدفق على أوروبا، وفي العام نفسه اخترعت الطباعة، وحصل تحول هام تمثل في انتصار الفرنسيين على البريطانيين في حرب المائة عام وانبثق واقع جديد برزت في كنفه أفكار الدولة القومية. وفي أواخر هذا القرن (١٥٩٢) اكتشف كريستوف كولومبس أميركا، وسقطت غرناطة في يد الأسبان، وفي أوائل القرن السادس عشر قامت ثورة الأصلاح الديني والثورة الفلاحية في ألمانيا (لوثر و مونزر).

ايطاليا في هذه المرحلة كانت ما زالت تعاني من وطأة الحكم الاقطاعي ، وواقع التجزئة لدويلات عديدة تفصل الريف عن المدينة، ومن وطأة سيطرة الفاتيكان التي كانت المستفيدة الأولى من واقع تجزئة أيطاليا إلى دويلات متصارعة ومتناحرة.

قال برونوسكي ومازليش عن عصر ماكيافللي: «اختفت إلى حد بعيد تراتبية النظام الاقطاعي، ذهبت العادات والروابط الاجتماعية القديمة. وفي عملية تشكيل طرق جديدة كانت أجزاء المجتمع تدفع بعضها البعض في الاقتراب من السلطة. . . لقد كفت الدولة عن الخضوع لسيطرة الكنيسة، ووجدت البابوية نفسها في الحقيقة تتحول إلى سلطة علمانية في الصراع الدائر بين المدن ـ الدول[1].

أما في فلورنسا وهي مسقط رأس ماكيافللي فقد كان عدد سكانها ١٠٠ ألف نسمة، ومن ألمع جمهوريات إيطاليا من حيث الموقع التجاري وتشكيل طبقة رأسمالية مصرفية تجارية، امتد نشاطها التجاري في مختلف اتجاهات العالم، مما أدخل إلى هذه الجمهورية ثروات طائلة جعلت فلورنسا تدخل شريكاً للبابوية في معاهدات استثمار تجارية على المستوى العالمي، وتقف على قمة هرمها الاجتماعي ارستقراطية استبدادية وهي أسرة مديتشي الذين حافظوا على الأنظمة الجمهورية القديمة، في الوقت الذي امسكوا فيه بأيديهم زمام الحكم الحقيقي، ففي عهد الأمير المديتشي الذي سماه الفلورنسيون «لورنزو العظيم» حيث سموا عهده بالعصر الذهبي للنهضة الايطالية، وكان لورنزو أديباً وشاعراً، وإليه يرجع الفضل في حفظ التوازن في القوى بين الوحدات الرئيسية الخمس للسلطان في ايطاليا، وهي مملكة نابولي، والدولة البابوية في روما، والبندقية وفلورنسا وميلان، وفي فترة حكمه بين عامي ١٤٦٩ و١٤٩٢ اغتيل أخوه وأصيب هو نفسه بجراح إثر مؤامرة قامت بها إحدى الفئات المعارضة المنافسة، وفي نفس الوقت كانت هذه

---

(١) ج. برونوسكي وبروس مازليش: «التقليد الثقافي الغربي من ليونارد إلى هيغل»؛ عن مجلة الفكر العربي ص ٤٠١ ـ ٤٠٢.

القوى (الجمهوريات) الخمس في حالة اشتباك دائم مع بعضها البعض، فقد كان هناك ما يشبه الحرب الصريحة المعلنة بين بيزا وفلورنسا.

في عام ١٤٩٢ مات لورنزو مديتشي وخلفه بييرو مديتشي الذي أمضي سنتين فقط في الحكم واضطر بعدها إلى الخروج من فلورنسا منفياً عندما تعرضت المدينة لغزو جاءها على أيدي شارل الثامن ملك فرنسا وظهور راهب دومينكاني اسمه سافوناورلا قام بإصلاح الجمهورية ونجح في إقامة حكومة تيوقراطية دينية، ما لبثت أن انهارت فأعدم الراهب وأحرقت جثته عام ١٤٩٨، وانشئت مستشارية لجمهورية فلورنسا، تشرف على كافة الشؤون في هذه الجمهورية، الداخلية والخارجية والعسكرية والاقتصادية. وحكمت هذه المستشارية فلورنسا مدة أربعة عشر عاماً، ثم وقع تطور جديد قلب الأوضاع كلياً في فلورنسا إذ تعرضت لغزو جديد جاءها أيضاً من فرنسا بقيادة يوليوس الثاني وجيوش الحلف المقدس الذي أعاد آل مديتشي إلى الحكم. لكن ما لبثت بعد سنوات معدودة أن عادت الأزمات الكبرى للدول الكبرى المحيطة بإيطاليا.

فقد ظهر في هذه الفترة لوثر المصلح الديني، وأدت المنافسات بين الامبراطور شارل الخامس امبراطور المانيا، والملك فرانسوا الأول ملك فرنسا، للسيطرة على ايطاليا، إلى إلحاق الدمار والخراب بروما وإلى طرد عائلة مديتشي من جديد من فلورنسا.

نيقولو ماكيافللي سيرته

ولد نيقول ماكيافللي في فورنسا عام ١٤٦٩، وكان والده احد المحامين في فلورنسا يشغل منصباً صغيراً في الحكومة، وتلقى ماكيافللي

التعلم المعتاد الذي يقدم لأولادالأسرةالبرجوازية الشريفة، تعلم اللغة اللاتينية، وأولع بالتاريخ الروماني حيث أوجد لكل نظام سياسي وكل حادثة شبيهاً لها في تاريخ روما، وبدأ بدراسة القانون ولم يتابع هذه الدراسة وبدأ ميله الشديد للسياسة مبكراً (فن الاستيلاء على السلطة).

في عام ١٤٩٨ عين وهو في التاسعة والعشرين من عمره أميناً للديتشي دلا جويرا Dieci della guerra وهو مجلس الحرب المكون من عشرة أعضاء وظل في هذا المنصب أربعة عشر عاماً.

وكان يقتصر عمله على جمع محاضر الجلسات والسجلات وتلخيص التقارير، وكتابة الرسائل، ولكنه من خلال هذا العمل كان يستطيع مراقبة سياسة أوروبا من داخل مراكز القرار، وأرسل ماكيافللي ببعثة إلى لويس الثاني عشر ملك فرنسا وكان يرأس هذه البعثة فرانتشيسكو دلاكاسا الذي مرض واستلم مكانه ماكيافللي ، حيث جال في قصور ملك فرنسا وقصور الأمراء والقواد وكان يبعث بالتقارير والتحليلات الدقيقة إلى مجلس السيادة في فلورنسا،هذه التقارير التي جعلت أعضاء مجلس السيادة يثنون عليه ويتعاملون معه على أنه أصبح دبلوماسياً ضليعاً.

في عام ١٥٠٢ أرسل ماكيافللي في بعثة إلى سيزار دي بورجيا في أربينو حيث التقاه وتأثر به ووجد فيه الرجل السياسي الطاغية الذي استطاع أن يقضي على كل مناوئيه وأعدائه بقتلهم أو سجنهم، واستطاع أن يبسط سيطرته ونفوذه على أكثر من عشرة مدن، وأصبح سيزاري بورجيا في تلك الساعة بطل فلسفة ماكيافللي كما أصبح بسمارك فيما بعد بطل فلسفة نيتشه.

فقد وجد في هذا الرجل الذي تجسدت فيه إرادة القوة والسلطة في

فلسفة أخلاقية تفوق الخير والشر، نموذجاً للإنسان الاسمى.

في عام ١٥٠٧ شهد ماكياڤللي تجسيد أول مبدأ من مبادئه الأساسية التي كان يبشر بها وهو أنه ما من دولة تحترم نفسها تقبل أن تعهد بالدفاع عن أراضيها إلى جنود مرتزقة وذلك لأنها لا تستطيع الركون إليهم في الأزمات ولأن في مقدور العدو المسلح بالقدر الكافي من الذهب أن يبتاعهم هم وقائدهم، ولهذا رأى ماكياڤللي أنه يجب إنشاء قوة حرس وطني من ابناء البلاد. والأفضل أن تكون هذه القوة مؤلفة من الفلاحين الأشداء الذين ألفوا المشاق وعاشوا في الهواء الطلق، ويجب أن تكون هذه القوة على الدوام حسنة التجهيز والتدريب.

وقبلت حكومة فلورنسا هذا المشروع وعهدت بتنفيذه إلى ماكياڤللي الذي ما إن أتم تجهيز حرسه الوطني حتى قاده إلى محاصرة «بيزا» والاستيلاء عليها. وكان هذا الإنجاز الذي أظهر فيه براعة فائقة قد أوصله إلى ذروة مجده واحترام الجمهورية له.

في عام ١٥١٠ أُرسل في بعثة إلى فرنسا، وفي طريقه مرّ على سويسرا، وأثار حماسته الاستقلال المسلح لدولة سويسرا الاتحادية. واتخذها مثلاً أعلى يريد أن يحققه لإيطاليا.

في عام ١٥١٢ حدث حادث خطير مما أدى إلى تحول جذري في حياة ماكياڤللي وفي تاريخ فلورنسا بشكل عام، إذ أمر يوليوس الثاني جيوش الحلف المقدس، أن تُسقط حكومة الجمهورية في فلورنسا، وتُعيد آل مديتشي إلى الحكم، ولم يستطع حرس ماكياڤللي الوطني الصمود والوقوف في وجه جنود يوليوس الثاني المدربين، واستولى جنود الحلف على فلورنسا، وتربع آل ميديتشي على العرش، وألقي القبض على ماكياڤللي. ورمي بالسجن وعذب، وبعد خروجه انتقل هو وزوجته وأولاده الأربعة إلى بيت أسرته في سان كاستشيانو، حيث قضى

السنين الخمس عشرة الباقية من حياته فيها، وحيث عـاني من الفقر والحاجة، ولكنه في هذه الفترة ألف كل الكتب التي أحدثت انقلاباً في الفكر والفلسفة السياسية في العالم كله.

ولماكيافللي لوحة معروضة في معرض أفيزي، راسمهـا مجهـول، ويظهر فيها شخصاً نحيل الجسم شاحب الـوجه غـائر الخـدين حاد العينين أسودهما رقيق الشفتين تدل ملامحه عن رجل فكر أكثر مما هو رجل عمل له من الذكاء الحاد أكثر مما له من الإرادة الطيبة والوداعة.

مؤلفات ماكيافللي وآثاره

إن السنوات الخمس عشرة، التي قضاها نيقولو ماكيافللي في منفاه في سان كاستشيانو، كانت سنوات عزلة موحشة، يعاني فيها الفقر، ويعلل نفسه بالآمال، فقـد كان يـذهب بعض الأحيان إلى فلورنسـا ليتحدث مع اصدقائه القدامى ويتحسس ما عسى أن يكون هناك من فرص للعمل من جديد في المناصب الحكومية تحت قيادة آل مديتشي، وكتب عـدة مرار إليهم في هـذا الموضـوع، ولكنـه لم يتلق منهم أي جواب.

في هذه المرحلة كتب ماكيافللي كتابه الأشهر الأمير.

وحول ظرف كتابة الأمير بعث ماكيافللي رسالة إلى صديقه ڤتوري Vittori سفير فلورنسا في روما، يشرح له فيها سبب تأليفه فيقول:

«لقـد ظلت منذ حلت بي الكـارثة الأخـيرة أحيـا حيـاة هـادئـة في الريف، فأصحـو في مطلع الشمس وأسير إلى إحدى الغـابات حيث أقضي بضع ساعات أراجع فيها عمل الأمس، ثم أمضي بعض الوقت مع قاطعي الأشجار وأجد لديهم على الدوام متاعب يفضون بها إليّ سواء كانت متاعبهم هم أو متاعب جيرانهم. فإذا غادرت الغابة ذهبت إلى نبع ماء ثم إلى حظيرتي التي اصطاد منها الطيور، وتحت إبطي كتاب

دانتي، أو بترارك أو أحد الشعراء الذين هم أقل منهما شأناً مثل تيبلس Tibellus أو أوفـد، وأقرأ في هـذه الكتب عن عـواطفهم الغـرامية وقصص حبهم فتذكرني بتـاريخ حبي أنـا، ويمر الـوقت وأنا مبتهـج مسرور بهذه الأفكار، ثم آوي بعد ذلك إلى الفندق القائم على جانب الطريق. وأتحدث إلى المارة، وأسألهم عن أخبـار الأماكن التي أقبلوا منها، وأستمع منهم إلى ما يحدثونني عنه وهـو كثير، وألاحظ مختلف الأذواق والأوهام المستكنة في عقول بني الإنسان وأصل بهذا إلى ساعة الغداء فأبتلع في صحبة من معي ما عسى أن أجـده في هذا المكـان الصغير من طعام غير ذي شأن يعني به ما ورثته عن أبوي من مـال قليل. وأعود بعد الظهر إلى الفندق حيث أجـد في العادة صـاحبه، وقصاباً، وطحاناً واثنين من صـانعـي الطوب. فأختلط مع هؤلاء الأقوام الغـلاظ طـول النهـار ألعب معهم النـرد وغـيره، وتثـور بيننـا آلاف المنازعات ونتبادل كثيراً من السباب، ونتشاحن على أتفه النقـود حتى تسمـع أصواتنـا في بلدة سان كـاستشيانـو، ويؤدي انغماسي في هـذا الانحطاط إلى ضعف قواي العقلية، فأصب غضبي على القدر وبلواه.

وأعود إلى داري في المساء، وآوي إلى حجرة مكتبي، وأخلع عند بابها ملابسي الريفية الملطخة بالطين والأقذار، وأرتدي ثيـاب رجال البلاد، حتى إذا لبست ما يليق بي من الثياب، دخلت الأبهاء القديمة لقدماء الرجال الذين يرحبون بي أحسن ترحيب، ويطعمونني الطعام الوحيد الذي أحبه وأرتضيه والذي ولدت له، ولا أستحي من التحدث إليهم وسؤالهم عن بواعث أعمالهم. وتصل بهم إنسانيتهم إلى أن يجيبوا عن أسئلتي، وأقضي على هذا النحو أربع ساعات لا أشعر فيها بملل ولا أذكر فيها متاعب. ولا أعود أخشى الفقر أو أرهب الموت، لأن كياني كله يكون مستغرقاً فيهم.

وإذا كـان دانتي يقول: إنـه لا وجـود لعلم من دون أن يحتفظ

الإنسان بما يستمع ، فقد سجلت ما حصلت عليه من حديثي مع هؤلاء العظام وألفت منه كتيباً سميته «في الإمارة» غرقت فيه إلى أبعد عمق أستطيعه من التفكير في هذا الموضوع، وبحثت فيـه طبيعة الإمـارة، وعـدد أنواعهـا، وطريق الـوصول إليهـا، والاحتفـاظ بهـا، وسبب ضياعها، فإذا كنت تعني بشيء من عبثي، فإنك لن تجد في هـذا ما يسوؤك، ويجب أن يرحب بـه على الأخص كـل أمير حـديث العهد بالإمارة. ومن أجل هذا أهديه إلى فخامة جوليانو . . . »(في ١٠ ديسمبر سنة ١٥١٣)[١].

وفي هـذه المرحلة أيضـاً كتب نيقولـو ماكيـافللي كتـابـه المسمى «أحاديث عن العشرة الكتب الأولى للبغي» أو ما اصطلح على تسميته «المطارحات» وقـد أهدى هـذه الأحاديث «Discorsi» إلى وسـانوبي بونديلمنتي وكوزيمو رتشيلي، وقال: «أبعث إليك بأعظم هدية أقدمها لك، لأنها تشمل على كل ما تعلمته بـالتجربـة الطـويلة والـدراسة المستمرة»، ويشير ماكيافللي في هذا الكتاب إلى آداب القدامى وقانونهم وطبعهم، ليستنيـر بها المحدثون في كتـاباتهم وأعـمالهم، وهو يقـترح كذلك بعث مبادىء الحكمة القديمة وتطبيقها على السياسة المعاصرة، وهو لا يستمد فلسفته السياسية من التاريـخ ، ولكنه يختـار من التاريـخ حوادث تؤيد النتائج التي قادته إليها تجاربه وأفكاره ويأخذ أمثلته كلها تقريباً من ليفي.

ووضع ماكيافللي كتاب الأصول il principe الـذي هو خلاصة لكتاب «أحاديث عن العشرة الكتب الأول للبغي» تضم ما وصل إليه من النتائج لأن هذه تتاح لها فرصة لقراءتها أفضل من البحث المطول. وكان ينوي إهداءه إلى جوليانو دي ميدتشي الذي كان يحكم فلورنسا في

(١) قصة الحضارة ول ديورانت الجزء ٢١ ص ـ ٤٨ ـ ٥٠ .

ذلك الوقت، ولكن جوليانو توفي (١٥١٦) قبل أن يصمم ماكيافللي على ارسال الكتاب إليه ولهذا غير صيغة الإهداء وبعث به إلى لورندسو دوق «أربينو» وتداولت الأيدي المخطوط وكتبت منه عدة نسخ ولم يطبع إلا في عام ١٥٣٢ بعد خمس سنوات من موت المؤلف.

وكتب ماكيافللي في عدة مواضيع وكان منها «رسالة له في فن الحرب» «L'arte della guerra» نشرها عام ١٥٢٠ وأعلن فيها للدول والقواد شرائع السلطة العسكرية، فقال: «إن الأمة التي تفقد الفضائل العسكرية أمة هالكة لا محالة، والجيش لا يحتاج إلى الذهب بل إلى الرجال، لأن الذهب وحده لا يأتي بالجند الصالحين على الدوام ولكن الجند الصالحين يأتون لذهب[1] «والذهب ينساب إلى خزائن الأمة القوية لكن القوة تفارق الأمة الغنية لأن الثراء يعمل على الراحة والاضمحلال، ولهذا يجب أن يظل الجيش مشغولاً على الدوام، فحرب صغيرة تشب من حين إلى حين تبقي العضلات العسكرية صالحة والجهاز الحربي صالحاً متأهباً وسلاح الفرسان جميل إلا إذا واجهته الحراب القوية، ويجب أن يعد هذا السلاح عصب الجيش وأساسه» «والجنود المرتزقة عار يجلل إيطاليا ودليل على تراخيها وضعفها وسبب في خرابها ومن واجب كل دولة أن يكون لها حرس وطني من أهلها مؤلف من رجال يحاربون دفاعاً عن وطنهم وأرضهم»

وكتب ماكيافللي في فن القصة، فكتب واحدة تعتبر من أحب القصص للشعب الإيطالي، وهي قصة بيلفاجور ارتشديا فولو. Belfagor arcidia volo، وهي قصة فكاهية تتخذ من الزواج والأزواج موضوعاً لها، وكتب أيضاً مسرحية «مندراجولا» «Mandragola»، وأحداث هذه المسرحية تدور في فلورنسا حيث يكشف فيها ماكيافللي

---

(١) قصة الحضارة، ول ديورانت جزء ٢١ ص ٥٢.

عن أخلاق عصر النهضة كشفاً يروع الإنسان ويذهله. وقد مثلت المسرحية في عام ١٥٢٠ بنجاح عظيم أمام البابا ليو العاشر الذي بلغ من سروره بها أن طلب إلى الكاردينال جوليو دي ميدتشي أن يعهد إلى ماكيافللي بعمل من نوع التأليف فاقترح جوليو أن يكون هذا العمل هو كتابة تاريخ فلورنسا.

ولما كتب ماكيافللي هذا الكتاب ما بين ١٥٢٠ و١٥٢٥ كان أول كتاب تاريخ كبير كتب باللغة الايطالية وكانت لغته واضحة خالية من التعقيد، وقد رفض الخرافات التي كانت فلورنسا تجمل بها منشأها، وتخلى عن الطريقة المألوفة القديمة وهي تأريخ الحوادث سنة فسنة، وعمد بدلاً منها إلى الرواية المنسجمة المتصلة المنطقية، ولم يكن يعالج الحوادث فحسب، بل كان يبحث في أسبابها ونتائجها.

الفصل الثالث

ماكياڤللي والفلسفة الماكياڤيللية

إن المسائل الرئيسية والأساسية التي طرحها ماكياڤللي في مؤلفاتها تتمحور حول السلطة والدولة والنظام والحكم، بحيث يمكن القول إن فلسفة ماكياڤللي هي فلسفة سياسية بحتة، فليس فيها شيء من فلسفة ما وراء الطبيعة ولا اللاهوت ولا يطرح مسألة الإيمـان والكفر، ولا يبحث في الجبرية والقدرية، حتى أن فلسفة الأخلاق عندما يتحدث عنها فإنه يضعها في خدمة السياسة بوصفها فلسفة تابعـة للسياسـة، والسياسة بالنسبة له هي الفن العالي الذي يراد به إيجاد دولة أو استيلاء على دولة أو حمايتها أو تقويتها.

والدولة عند ماكياڤللي هي الوحدة الأساس للمجتمع لا الأفراد الذين هم أعضاء في هذه الدولة، ودورهم الأساسي هو المساعدة في تقرير مصير هذه الدولة.

والسؤال الأسـاسي الذي يضعـه ماكيـاڤللي نصب عينيه في كـل فلسفته هو: لماذ تنشأ الدول، ولماذا تسقط وكيف يمكن الاستيلاء على السلطة وكيف يمكن الحفاظ عليها؟

ونستطيع أن نتتبع فلسفته ماكياڤللي السياسية من خلال كتابـين أساسين وضع فيهما كل فلسفته وطروحاته، وهما. «المـطارحات» أو «أحاديث عن العشرة الكتب الأولى للبغي». والذي لخصه في كتاب

سماه «الأصول» Il principr . وهو يتناول الجمهوريات وأنظمة الحكم عبر التاريخ .

والكتاب الثاني وهو «الأمير» أو «فن الإمارة» والذي يتناول أنظمة الحكم الملكية أي الإمارة وكيفية الاستيلاء على السلطة والمحافظة عليها. بالإضافة إلى كتابه «تاريخ فلورنسا» حيث أعتبر في هذا الكتاب أن فلسفة التاريخ وعلم الحكم أمكن وجودهما لأن الطبيعة لا تتبدل أبداً. فيقول:

«يقول الحكماء، ولهم الحق فيما يقولون: إن من شاء أن يتنبأ بالمستقبل فعليه أن يرجع إلى الماضي لأن الأحداث البشرية تشابه دائماً وأبداً أحداث الأزمنة الماضية، ومنشأ هذا التشابه أنها ثمرة أعمال خلائق كانوا، ولا يزالون، وسيكونون على الدوام، تحركهم نفس العواطف والانفعالات ولهذا فإن هذه العواطف والانفعالات لا بد أن تكوّن النتائج نفسها. . .وأنا أعتقد أن العالم كان هو بعينه على الدوام، وأنه كان يحتوي دائماً كل ما يحتويه الآن من خير وشر، وإن كان هذا الخير وذاك الشر يختلف توزيعهما بين الأمم باختلاف الأوقات»[١]

ويبحث ماكيافللي في ظاهرة نشؤ الحضارات واضمحلالها، هذه الظاهرة التي تعتبر من أكثر الظواهر المتتابعة والمنتظمة دلالةً في التاريخ فيقول: «الشجاعة تنتج السلم. والسلم ينتج الراحة، والراحة تستتبع الفوضى، والفوضى تؤدي إلى الخراب، ومن الفوضى ينشأ النظام، والنظام يؤدي إلى الشجاعة، ومن هذه ينال المجد والحظ الحسن، ومن أجل هذا قال الحكماء: إن عهد السمو الأدبي يأتي من أعقاب التفوق

(١) قصة الحضارة ـ ول ديورانت جزء ٢١ صفحة ٥٧.

الحربي، وإن المحاربين العظام ينشأون قبل الفلاسفة»[1]*.

أما في كتاب «المطارحات» أو «أحاديث عن العشرة الكتب الأولى للبغي». فيبحث ماكياڤللي في مسألة نشؤ الدول هذا النشؤ الذي دائماً ما يتبع قوانين عامة وثابتة يحددها ما تنطوي عليه طبيعة الناس من خبث وشر والناس كلهم بطبيعتهم مخادعون، مخاصمون، قساة، فاسدون، فيقول:

«ومن أراد أن ينشيء دولة ويضع لها قوانين، فليفترض في بادىء الأمر أن الناس جميعاً أشرار، مستعدون على الدوام لأن يكشفوا عن خبث طويتهم إذا وجدوا الظروف الملائمة لهذا العمل، فإذا ما ظلت ميولهم الخبيثة مختفية إلى حين فيجب أن يعزى اختفاؤها هذا إلى سبب غير معروف، ومن واجبنا أن نفترض أنها لم تجد الظروف الملائمة للكشف عن نفسها، ولكن الزمن لن يعجزه الكشف عنها، والرغبة في الاقتناء من الغرائز الفطرية العامة في واقع الأمر، والناس جميعاً يقتنون حين يستطيعون، ولهذا فإنهم يمدحون على ذلك ولا يلامون عليه»[2]

وبناءً عليه فإن ماكياڤللي يرى الطريقة الوحيدة لجعل الناس قادرين على أن يعيشوا بنظام في مجتمع، هي أن يطبق عليهم القسر والقسوة والخداع وتعويدهم على احترام النظام بمرور الوقت، فالدولة هي القوة والقسوة وهذا يتم عن طريق الجيش والشرطة، ووضع القواعد والنظم والقوانين، وخلق عادات احترام النظم تدريجياً

---

(١) نفس المرجع السابق.

(*) نلاحظ هنا أوجه الشبه الكبير بين هذا الرأي لماكياڤللي وبين نظرية ابن خلدون في نشؤ وسقوط الأمم. راجع الفصل السابق حيث عقدنا المقارنة، بين ماكياڤللي وابن خلدون.

(٢) المطارحات عن ول ديورانت قصة الحضارة جزء ٢١ ص ٥٨.

للاحتفاظ بالزعامة لتسيير الجماعة البشرية، وكلما كانت الدولة أكثر نماءً، كلما كانت الحاجة إلى استخدام القوة أقل، ويحتل بدلاً منها التعليم وغرس العادات، لأن الناس بيد الحاكم القدير أشبه بالصلصال اللين في يد المثال.

ويرى ماكياڤللي أن الدين هو خير وسيلة لتعويد الناس الذين فطروا على الشر واخضاعهم لسلطة القانون والنظام.

ويقول عن الدين:

«لم تر الآلهة أن الشرائع التي وضعها روميلوس كافية لرومة، وإن كان هذا الأمر هو الذي أنشأها ولهذا أوحت إلى مجلس الشيوخ الروماني أن يختار نوما بمبليوس خليفة له... ووجد نوما شعباً متوحشاً أشد التوحش أراد أن يغرس فيه عن طريق فنون السلم عادة الطاعة المدنية، فلجأ إلى الدين الذي رآه أقوى مؤيد للمجتمع المدني وألزمه، فأقامه على أسس بلغ من قوتها أن مضت قرون طوال دون أن يوجد في مكان ما خوف من الآلهة أكبر في هذه الجمهورية. وقد يسر هذا تيسيراً كبيراً جميع المشروعات التي حاول القيام بها مجلس الشيوخ أو كبار أعضائه، وقد أدعى نوما أنه تحدث إلى إحدى الحور، وأنها أملت عليه كل ما يريد أن يقنع الناس به»[1]

وعند ماكياڤللي أن سبب عظمة الجمهوريات هو اتباع الأنظمة الدينية، وإهمالها يؤدي إلى خراب الدول. ذلك أنه إذا أنعدم خوف الله من بلد ما، فإن هذا البلد سوف ينهار لا محالة، إلا إذا دعمه خوف الأمير وهو خوف يمكن أن يعوض فترة من الزمن ما ينقص هذا البلد من خشية الله، لكن حياة الأمراء قصيرة.

---

(١) نفس المرجع السابق.

ويتابع ماكياڤللي: «وإذا أراد الأمراء أن يبقوا على أنفسهم، وجب عليهم قبل كل شيء أن يحافظوا على نقاء الشعائر الدينية، وأن ينظروا إليها بالاحترام اللائق بها، وهذا بعينه يصدق على الجمهوريات، فلا بقاء لها إلا إذا حافظت على هذا النقاء ووجهت إلى تلك الشعائر هذا الاحترام نفسه... وأكثر من يستحق الثناء هم الذين أنشأوا الأديان وأقاموها. ويليهم في هذا الذين أقاموا الجمهوريات والممالك، وأعظم الناس بعد هؤلاء وأولئك هم الذين قادوا الجيوش ووسعوا أملاك بلادهم، وقد نضيف إليهم رجال الأدب وعكس هذا أيضاً صحيح، فالذين يهدمون صرح الدين ويقضون على الجمهوريات والممالك والذين هم أعداء الفضيلة والآداب، أولئك يجللهم العار وتصب عليهم اللعنات من الناس أجمعين»[1]

كان هذا كلام ماكياڤللي عن الدين بشكل عام ولكنه ينتقل بعد هذا إلى نقد الدين المسيحي بشكل خاص، لأن هذا الدين المسيحي لم يستطيع أن يوجد مواطنين صالحين، وذلك لأنه حول كل اهتمامه إلى السماء ولم يعر الأرض أي اهتمام، هذا بالإضافة إلى دعوته الناس لاعتناق الأخلاق الخاشعة والمستضعفة والتي يسميها نسوية، فيقول: «إن الدين المسيحي يدعونا إلى الاستخفاف بحب الدنيا، ويجعلنا أكثر رقة وليناً، أما القدماء فكانوا عكس هذا، ولم يكن دينهم يقدس إلا بسبب الذين يتوج هاماتهم مجد هذا العالم الأرضي كقواد الجيوش ومؤسسي الجمهوريات على حين أن ديننا نحن يمجد الوادعين الذين يقضون وقتهم في التأمل والتفكير بدل أن يمجد رجال العمل، وقد جعل هذا الدين أعلى درجات الخير الذلة، وضعف العزيمة، واحتقار الأمور الدنيوية، أما الدين القديم فقد جعل أعلى درجات الخير، عظم

---

(١) نفس المرجع السابق.

العقل وقوة الجسم، وكل ما يبعث في الناس الإقدام والجرأة. ومن أجل هذا خر العالم صريعاً أمام الأشرار، فقد وجد هؤلاء الناس أكثر استعداداً للخضوع إلى الضربات طمعاً منهم في دخول الجنة بدل أن يردوا عليها بمثلها.. . ولو أن الدين المسيحي قد احتفظ به حسب القواعد التي وضعها له مؤسسه، لكانت الدول والبلاد المسيحية أقوى اتحاداً وأكثر سعادة مما هي الآن، وهل ثمة أدلة على ضعفها وانحلالها من أن أقرب الشعوب إلى الكنيسة الرومانية وهي رأس هذا الدين، أقلها ديناً، ومن يبحث في المبادىء التي يقوم عليها هذا الدين يرى البون الشاسع بين هذه المبادىء وبين أساليبها الحاضرة وشعائرها، يحكم من فوره أن انهيار هذا الدين أو مصيره المحتوم آت غير بعيد. . . وإذا شئنا أن نضمن للطوائف أو الجمهوريات الدينية حياة أطول وأبقى وجب أن نرجع بها مراراً وتكراراً إلى مبادئها الأولى الأصلية»[1]

وعلى هذا فإن ماكيافللي يقبل الدين المسيحي كنظام من المعتقدات ما فوق الطبيعة، الذي هو دعامة لا غنى عنها للنظام الاجتماعي، ولكن ما يرفضه من المسيحية فهو مبادئها الأخلاقية وما تراه من أن الصلاح والخير هما الرقة والذلة والاستسلام وعدم المقاومة وحبها للسلم، وتنديدها بالحرب وافتراضها أن الدول والأفراد، مرتبطون بقانون اخلاقي واحد.

ويفضل ماكيافللي على مبادىء المسيحية الأخلاقية القانون الأخلاقي الروماني، القائم على المبدأ القائل إن سلامة الشعب أو الدولة هو القانون الأعلى فيقول: «وحيث يكون الأمر أمر مصلحة بلادنا وخيرها، وجب علينا ألا نقبل البحث في العدل أو الظلم والرحمة أو القسوة وما هو خليق بالثناء أو الازدراء، بل يجب أن نسلك كل

(١) نفس المرجع السابق.

سبيل ينقذ حياة الأمة وحريتها وننحي جانباً كل ما عـدا هذا» ذلك أن الأخلاق بوجه عام إن هي إلا قانون للسلوك وضع لأفراد المجتمع أو الدولة لحفظ النظام الجماعي ، والوحدة، والقوة، وإن حكومة تلك الدول لتعجز عن اداء واجبها إذا كانت وهي تدافع عن الدولة تسمح بأن تقيد نفسها بالقانون الأخلاقي الذي يجب عليهـا أن تغرسـه في نفوس شعبها، ومن ثم فإن الدبلوماسي غير مقيد بالقانون الأخلاقي الذي يتقيد به شعبه. فإذا ما أدانه عمل قام به وجب أن تغفر له نتيجة هذا العمل ذنبه» ذلك أن الغاية تبرر الوسيلة. وما من رجل صالح يلوم رجلاً غيره يحاول أن يدافع عن بلاده أياً كانت السبيل التي يسلكها لهذا الدفاع، فضروب الغش والقسوة والجرائم التي يرتكبها الرجل في سبيل الاحتفاظ بدولته كلها «غش شريف، وجرائم مجيدة» ومن ثم فإن رميولوس كان على حق حين قتل أخاه لأن الحكومة الناشئة كانت تتطلب الوحدة وإلا مزقت ارباً»[١]

ويخلص ماكياڤللي بعد هذا كله إلى أنه ليس هناك «قانون طبيعي» أو «حق» متفق عليه من الناس جميعاً والسياسة إذا قصد بها فن الحكم يجب أن تكون مستقلة عن الأخلاق استقلالاً تاماً.

خلاصة القول، إن الدولة عند ماكياڤللي هي قوة فعالة يجب أن تعتمد في جوهرها على الدينامي وعلى العدوان وهي لا تنطوي على أي مبادىء اخلاقية.

أما في كتاب «الأمير» فيبدأ مـاكياڤللي كتـابه بـالتمييز بـين أنواع الحكومات. فهي تكون في أحد شكلين:

إما الشكل الجمهوري.

أو الشكل الملكي.

---

(١) نفس المرجع السابق.

والملكيات إما أن تكون وراثية بحيث ينتقل الحكم فيها عبر السنوات الطويلة ضمن أفراد الأسرة الواحدة، أو حديثة العهد والنشؤ.

والملكيات الناشئة إما أن تكون جديدة في كل شيء أو تكون ملحقات جديدة اتبعت بممتلكات الأمير الوارثي الذي ضمها إلى ممتلكاته.

والممتلكات المكتسبة إما أن تكون آلفة لهذا النوع من الحكم، لأنها كانت خاضعة لأمير آخر، أو أنها كانت دولاً حرة وقد اتبعت بممتلكاته عن طريق قوته العسكرية الخاصة أو قوة الآخرين.

وينحي ماكياڤللي الشكل الجمهوري ويقتصر في كتابه على الشكل الملكي لأنه تناوله بصورة مسهبة في مكان آخر ويقول: «ولكنني سأقصر حديثي على الملكيات فاشرح الطرق التي يمكن بواسطتها إدارة الأنواع المختلفة منها. والاحتفاظ بها،[1] فالملكيات نوعان:

١ ـ ملكية وراثية.

٢ ـ ملكية الاستيلاء.

أما الملكية الوراثية، فلا يتحدث عنها كثيراً في كتابه «الأمير» لأنه في هذا النوع من السهل جداً أن يحكم الأمير يقول: «في المقام الأول تكون مهمة الاحتفاظ بالملكيات الوراثية، حيث تعود الناس على أسرة حاكمة، أقل صعوبة من الاحتفاظ بالملكيات الجديدة، إذ يكفي في هذه أن لا يضطر المرء إلى الاعتداء على المألوفات الوراثية، وأن يكيف نفسه لظروف لم يكن يتوقعها. ويستطيع الأمير بهذه الطريقة، إذا كان مثابراً ودؤوباً على العمل أن يحتفظ دائماً بمركزه إلا إذا طرأت قوى استثنائية،

---

(١) الأمير ص ٥٦.

وبالغة الشدة فطردته منه. ولكنه حتى لو طرد، ففي امكانـه عندمـا تصيب الأمير الجديد، أية لوثة مهما ضؤلت من سؤ الطالع، أن يستعيد مركزه ومكانته[1].

بعد ذلك ينتقل ماكيافللي للكلام على إمارة الاستيلاء أو الملكيات المختلطة. ويفـرد مـا تبقى من الكتـاب للتكلم عن هـذا النـوع من الملكيات.

فهذا النوع من الملكيات أي أن الحاكم لم يخلق أمير فهو من عامة الشعب، فإما أن يستولي على إمارة بكاملها. وإما أن تكون عنده خميرة استيلاء على قسم من الإمارة. هذه المسـألة تنعكس عنـد ماكيـافللي بنصائحه حول الاستيلاء على السلطة. فالصعوبة تقف بوجه هذا النوع الثاني من الحكام بعكس النوع الأول. والتي هي «إمارة الوراثة».

ثم قبل أن يبدأ ماكيافللي بالتحدث بتفصيلات إمارات الاستيلاء، يتحدث عن أنواع الإمارات ويقول بوجود نوعين:

١ ـ الإمارات الغربية.

٢ ـ الإمارات الشرقية.

ففي الفصل الرابع وهو تحت عنوان: «الأسباب التي حالت دون ثورة مملكة درايوس التي احتلها الاسكندر ضد خلفائه بعد موته».

فيجيب إن التاريخ يعرف من الممالك نوعـين تحكمان بـطريقتين مختلفتين. ومن أمثـلة هذين النوعين حكومة الأتراك وهي الإمارات الشرقية، ومملكة فـرنسا وهي الإمـارات الغربيـة يقول: «فـالسلطنة التركية يحكمها حاكم واحد، أما الآخرون فخدمه وموظفوه، وتنقسم المملكة إلى سناجق يبعث إليهـا الحاكم بمـوظـفين إداريـين مختلفين،

---

(١) الأمير ص (٥٦ ـ ٥٧).

يعزلهم متى يشاء ويبدلهم متى أراد. أما ملك فرنسا فيحيط به عدد ضخم من النبلاء الأقدمين الذين يعترف بهم ابناء رعيتهم، ويحبونهم، ولهم امتيازاتهم الخاصة التي ليس بوسع الملك حرمانهم منها، إلا إذا عرض نفسه للأخطار، وإذا درسنا أوضاع هاتين الدولتين، تبين لنا أن من الصعوبة بمكان عظيم احتلال مملكة الأتراك. ولكن إذا تمكنت من احتلالها فمن السهل الاحتفاظ بها، وقد يكون من السهل من نواح عدة احتلال مملكة فرنسا، ولكن الاحتفاظ بها أمر شاق وعسير.

أما سبب الصعوبة في احتلال المملكة التركية فيقوم في أن المحتل لا يمكن أن يستدعي من امراء تلك المملكة للقيام بمثل هذا العمل كما لا يسعه أن يأمل في تسهيل مغامرته عن طريق ثورة يعلنها أولئك القريبون من شخص الحاكم كما يتضح من الأسباب التي شرحتها في هذا الفصل، إذ لما كان هؤلاء جميعاً من العبيد والمعتمدين على شخص الحاكم، فمن الصعب رشوتهم، وحتى لو تحققت هذه الرشوة فإنهم أعجز من أن يحملوا معهم الشعب في ثورتهم بسبب العوامل التي ذكرتها. ولذلك فإن على كل من يهاجم السلطان التركي، أن يعتمد على قوته لا على الاضطرابات في صفوف العدو، إذ إنه سيواجه جيشاً متحداً، ولكنه إذا تمكن من الانتصار عليه وهزمه في ميدان القتال هزيمة تقعده عن امكانية حشد جيوش جديدة، فلا يبقى أمام المحتل ما يخافه إلا أفراد أسرة الأمير التركي، وإذا ما قام بإبادتها والقضاء عليها لم يعد هناك من يخافه، إذ إن الأخرين لا يتمتعون بأية مكانة لدى الشعب، ولما كان المنتصر قبل نصره لم يعلق عليهم الآمال الكبار ففي وسعه بعد انتصاره أن لا يتوجس منهم خيفة.

ويقع العكس بالنسبة للممالك التي تحكم على غرار فرنسا إذ إن من السهل على الغازي احتلالها عن طريق استمالة النبلاء في المملكة لاسيما

وأن هناك دائماً عدداً من الساخطين الحاقدين وآخر من الراغبين في التغيير، وفي وسع هؤلاء، للأسباب التي شرحت أن يفتحوا الطريق أمامهم وأن يسهلوا عليك الوصول إلى النصر. ولكنك إذا أردت فيما بعد أن تحافظ على ما ملكت فستقوم في طريقك عقبات لا حصر لها، يثيرها أولئك الذين ساعدوك في الماضي والآخرون الذين تعرضوا لاضطهادك. ولن يكفيك اضطهاد أفراد أسرة الأمير، إذ سيظل دائماً أولئك النبلاء الذين سيتولون القيادة في كل ثورة جديدة ولما كنت أعجز من أن ترضيهم أو تقضي عليهم فإنك ستفقد الدولة التي احتللت عندما تحين الفرصة المناسبة»[1].

ثم يعود ماكيافللي بعد ذلك للتقسيم المركزي الذي اعتمد عليه في كتابه، أي الفرق بين إمارة الوراثة وإمارة الاستيلاء، وبهذا السياق فإنه يميز بين عدة أنواع من الحكم الملكي فإذا كانت إمارة الاستيلاء (قبل الاستيلاء عليها) محكومة من قبل أمير فأول عمل يجب أن يقوم به هو إبادة العائلة الحاكمة. وعند التخلص منهم تستطيع التأسيس لزعامة جديدة كون الناس مطواعين. بينما إذا دخلت على إمارة لم يكن يحكمها أمير بل تحكم نفسها بنفسها (أي جمهورية) فيصعب عليك تطويعها فيجب أن تستعمل عدة وسائل يقول: «عندما تكون الدول التي تم احتلالها، قد ألفت الحرية في ظل قوانينها الخاصة، فهناك ثلاثة سبل للاحتفاظ بهذه الدول:

١ ـ أما السبيل الأول فهو تجريدها من كل شيء.

٢ ـ أما السبيل الثاني فهو أن يذهب الأمير المحتل ليقيم في ربوعها.

٣ ـ أما السبيل الثالث والأخير. فهو أن يسمح لأهلها بالعيش في

---

(١) الأمير ص ٧٢ ـ ٧٤.

ظل قوانينهم مكتفياً بتناول الجزية منهم وخالقاً فيها حكومة تعتمد على الأقلية الموالية للحاكم. وتدرك مثل هذه الحكومة التي خلقها الأمير أنها تعتمد في بقائها على صداقته وحمايته، ولذا تبذل بالغ الجهد للحفاظ عليها. يضاف إلى هذا أن المدينة التي الفت الحرية لا تذعن بسهولة إلا إلى أبنائها ومواطنيها وهذا هو السبيل الصحيح للاحتفاظ بها»[1]

بعد ذلك يعطي ماكيافللي في الفصول التالية أمثلة عن كل نوع من الممالك. مثل:

فصل: الممالك المحتلة حديثاً بقوة السلاح الخاص وبالقدرة والكفاءة.

فصل: الممالك التي يتم احتلالها بمساعدة الآخرين أو بمساعدة الحظ.

فصل: أولئك الذين يصلون إلى الإمارة عن طريق النذالة.

فصل: الإمارات المدنية.

فصل: كيف تقاس قوة جميع الدول.

فصل: الإمارات الكنسية.

فصل: الأشكال المختلفة للمتطوعة وجنود المرتزقة.

فصل: القوات الإضافية والمختلطة والأصلية.

فصل: واجبات الأمير تجاه المتطوعة.

بعد ذلك ينتقل ماكيافللي إلى الفصول التي تتحدث عن الصفات الأخلاقية التي يجب أن يتحلى بها «الأمير» وقد أعتبر كثير من المحللين أن هذه الفصول هي جوهر المذهب الماكيافللي وجوهر الماكيافلليين.

ففي فصل تحت عنوان: «الأمور التي يستحق عليها الرجال

---

(١) الأمير صفحة ٧٦.

ولاسيما الأمراء المديح أو اللوم» يقول ماكياڤللي: «عندما يرى الإنسان نفسه محاطاً بهذا العدد الكبير من الناس الذين لا خير فيهم، لذا من الضروري لكل أمير يرغب في الحفاظ على نفسه أن يتعلم كيف يبتعد عن الطيبة والخير وأن يستخدم هذه المعرفة أو لا يستخدمها وفقاً لضرورات الحالات التي يواجهها... فجميع الرجال ولاسيما الأمراء الذين يوضعون في مناصب رفيعة يشتهرون بمزايا معينة، قد تكون سبباً في إضفاء المديح أو اللوم عليهم. وهكذا قد يعتبر أحد الأمراء كريماً متحرراً بينما يعتبر الآخر بخيلاً شحيحاً. وقد يعتبر أحدهم ذا أريحية والآخر ذا شح وطمع، أو قاسياً فظيعاً والثاني رحيماً. وقد يعتبر الأول ناكثاً لوعده والآخر وافياً به، أو مخنثاً خائر العزيمة والآخر عنيفاً قوي الشكيمة أو ودوداً انسانياً والآخر متكبراً متعجرفاً أو داعراً فاسقاً والآخر نقياً طاهراً، أو صريحاً والآخر ماكراً أو قاسياً والآخر ليناً، أو جاداً والآخر هازراً أو متديناً ورعاً والآخر كافراً ملحداً وهكذا دواليك... ولكن لما كان من المستحيل أن يمتلك الإنسان كُل هذه الصفات وأن يمارسها، لأن الأوضاع الإنسانية لا تسمح بذلك. فإن من الضروري أن يكون من الحصافة والفطنة بحيث يتجنب الفضائح المترتبة على تلك المثالب التي قد تؤدي به إلى ضياع دولته... إذ إن التعمق في درس الأمور يؤدي إلى العثور على أن بعض الأشياء التي تبدو فضائل تؤدي إذا اتبعت إلى دمار الإنسان. بينما هناك أشياء أخرى تبدو كرذائل ولكنها تؤدي إلى زيادة ما يشعر به الإنسان من طمأنينة وسعادة»[1].

بعد ذلك يفصل ماكياڤللي كل صفة من الصفات التي ذكرها في الفصل السابق، ففي فصل السخاء والبخل يقول: «إن من الخير أن

---

(١) الأمير ص ١٣٦ ـ ١٣٧.

يعتبر الإنسان كريماً سخياً. ومع ذلك فإن السخاء على النحو الذي يفهمه العالم قد يؤدي إلى إيذائك...».

«على الأمير أن لا يكترث كثيراً باشتهاره بالبخل هذا إذا رغب في تجنب سرقة شعبه... وتجنب الفقر وما يرافقه من مهانة.. فالشح هو إحدى الرذائل التي تمكنه من أن يحكم.... وليس هناك ما هو أشد ضرراً على نفسك من الجود والكرم إذ باستعمالك له تفقد قدرتك على استخدامه وتصبح إما فقيراً وإما حقيراً، أو إذا رغبت النجاة من الفقر تضحي نهاباً سلاباً، يكرهك بسببه رعاياك. وعلى الأمير أن يتجنب قبل كل شيء أن يوصم بالحقارة أو يتعرض للكراهية ولا ريب في أن الكرم سيقوده إلى إحدى هاتين النتيجتين ـ ولذا فمن الأفضل أن تكون بخيلاً فهذا يعرضك للتحقير دون الكراهية على أن تكون مرغماً بدافع الحاجة إلى أن تصبح لصاً سلاباً مما يعرضك للتحقير والكراهية معاً»[1].

وفي فصل تحت عنوان: «الرأفه والقسوة وهل من الخير أن تكون محبوباً أو مهاباً» يقول ماكيافللي: «على الأمير أن لا يكترث بوصمه بتهمة القسوة إذا كان في ذلك ما يؤدي إلى وحدة رعاياه وولائهم».

وفي الرد على السؤال: «هل من الخير أن تكون محبوباً أو مهاباً» يقول: «إن من الواجب أن يخافوك الناس وأن يحبوك، ولكن لما كان من العسير أن تجمع بين الأمرين فإن من الأفضل أن يخافوك على أن يحبوك. هذا إذا توجب عليك الاختيار بينهما؛ وقد يقال عن الناس بصورة عامة إنهم ناكرون للجميل متقلبون، مراؤون ميالون إلى تجنب الأخطار وشديدو الطمع، وهم إلى جانبك طالما أنك تفيدهم فيبذلون لك دماءهم وحياتهم وأطفالهم وكل ما يملكون، طالما أن الحاجة بعيدة

(١) الأمير صفحة ١٤٠ ـ ١٤١.

نائية ولكنهم عندما تدنو يثورون. ومصير الأمير الذي يركن إلى وعودهم دون اتخاذ أية استعدادات أخرى، إلى الدمار والخراب، إذ إن الصداقة التي تقوم على الشراء والبيع، لا على اساس نبل الروح وعظمتها هي صداقة زائفة تشرى بالمال ولا تكون أمينة موثوقة. وهي عرضة لأن لا تجدها في خدمتك في أول مناسبة. ولا يتردد الناس في الإساءة إلى ذلك الذي يجعل نفسه محبوباً بقدر ترددهم في الإساءة إلى من يخافونه، إذ إن الحب يرتبط بسلسلة من الالتزام التي قد تتحطم بالنظر إلى أنانية الناس عندما يخدم تحطيمها مصالحهم. بينما يرتكز الخوف على الخشية من العقاب وهي خشية قلما تمنى بالفشل»[1].

وفي فصل تحت عنوان: «كيف يتوجب على الأمير أن يحافظ على عهوده»: يقول ماكيافللي: «إن تجارب عصرنا أثبتت أن الأمراء الذين قاموا بجلائل الأعمال، لم يكونوا كثيري الاهتمام بعهودهم والوفاء بها، وتمكنوا بالمكر والدهاء من الضحك على عقول الناس وإرباكها وتغلبوا أخيراً على أقرانهم من الذين جعلوا الإخلاص والوفاء رائدهم.

وعليك أن تدرك أن ثمة سبيلين للقتال. أحدهما بواسطة القانون والآخر عن طريق القوة. ويلجأ البشر إلى السبيل الأول أما الحيوانات فتلجأ إلى السبيل الثاني. ولكن لما كانت الطريقة الأولى غير كافية لتحقيق الأهداف عادة: فإن على الإنسان أن يلجأ تبعاً لذلك إلى الطريقةالثانية، ومن الضروري للأمير أن يعرف استخدام الطريقتين معاً، أي طريقة الإنسان وطريقة الحيوان. . . وهذا ما نصح به قدماء الكتاب الحكام في الماضي، مستشهدين بآخيل وغيره من الأمراء الأقدمين الذين عهد بهم إلى شيرون القنطور الخرافي (حيوان) لتربيتهم وتعليمهم على نظامه. وهذا الرمز الخرافي نصف الإنسان ونصف الحيوان، قصد منه أن يشير

(١) الأمير صفحة ١٤٢ ـ ١٤٤.

إلى أن الأمير يجب أن يتعلم الطبيعتين الإنسانية والحيوانية وإن إحداهما لا يمكن أن تعيش من دون الأخرى.

وعلى الأمير الذي يجد نفسه مرغماً على تعلم طريقة عمل الحيوان، أن يقلد الثعلب والأسد معاً. إذ إن الأسد لا يستطيع حماية نفسه من الأشراك. والثعلب لا يتمكن من الدفاع عن نفسه أمام الذئاب، ولذا يتحتم عليه أن يكون ثعلباً ليميز الفخاخ وأسداً ليرهب الذئاب. وكل من يرغب في أن يكون مجرد أسد ليس إلا، لا يفهم هذا وعلى الحاكم الذكي المتبصر، أن لا يحافظ على وعوده عندما يرى أن هذه المحافظة تؤدي إلى الإضرار بمصالحه، وأن الأسباب التي حملته على إعطاء هذا الوعد لم تعد قائمة، ولو كان جميع الناس طيبين فإن هذا الرأي لا يكون طيباً. ولكن بالنظر إلى أنهم سيئون وهم بدورهم لن يحافظوا على عهودهم لك، فإنك لست ملتزماً بالمحافظة على عهودك لهم. ولن يعدم الأمير الذي يرغب في إظهار مبررات متلونة للتنكر لوعوده، ذريعة مشروعة لتحقيق هذه الغاية. وفي وسع الإنسان أن يورد عدداً لا يحصى من الأمثلة العصرية على هذه الحقيقة وأن يظهر كم من المرات تنكر الأمراء لمواثيق السلام، فنقضوا معاهداتهم وكم من المرات أضحت عهودهم لا قيمة لها من جراء تنكرهم لها، وأن يبرهن على أن أولئك الذين تمكنوا من تقليد الثعلب تقليداً طيباً قد نجحوا أكثر من غيرهم. ولكن الضرورة تحتم على الأمير الذي يتصف بهذه الصفة أن يجيد إخفاءها عن الناس، وأن يكون مداهناً كبيراً ومرائياً عظيماً. ومن طبيعة الناس أن يكونوا من البساطة والسهولة بحيث يطيعون الاحتياجات الراهنة، ولذا فإن من يتقن الخداع يجد دائماً أولئك الذين هم على استعداد لأن تنطلي عليهم خديعته»[١]

(١) الأمير صفحة ١٤٧ - ١٤١.

وفي فصل تحت عنوان: «واجبنا تجنب التعرض للاحتقار والكراهية» يقول ماكيافللي: إن على الأمير أن يتجنب كل ما يؤدي إلى تعرضه للاحتقار والكراهية، وعندما ينجح في ذلك يكون قد قام بدوره ـ ولا يري خطراً في الرذائل الأخرى... وقد يعتبر الأمير دنيئاً حقيراً إذا رأى الناس فيه تقلبه وتفاهته وتخنثه وجبنه واستجداءه. وهي أمور يجب أن يقي الأمير نفسه منها، على اعتبار أنها الصخرة التي تمثل الخطر، وأن يدبر أمره بحيث تبدو من أعماله مخائل العظمة والحيوية والرصانة والجلد. أما بالنسبة إلى حكم رعاياه فعلى أحكامه أن تكون مبرمة لا تقبل النقض وأن يتمسك بقراراته فلا يسمح لإنسان بخديعته أو الاحتيال عليه»[1].

وفي فصل تحت عنوان: «هل القلاع وغيرها من الأشياء التي يبتكرها الأمير نافعة أم مؤذية؟» يقول ماكيافللي: «يلجأ بعض الأمراء للحفاظ على ممتلكاتهم باطمئنان وأمان، إلى نزع السلاح من رعاياهم، بينما يلجأ آخرون إلى الإبقاء على الأراضي التي يحتلونها مجزأة. وهناك من يحاول منهم تهدئة الحزازات التي تكمن ضدهم بينما ثمة أخرون يحاولون أن يكسبوا إلى جانبهم أولئك الذين كانوا يشكون في صدق ولائهم عند بداية عهدهم، وقد أقام بعض الأمراء قلاعاً وحصوناً بينما عمد أخرون إلى هدمها، وإزالتها...

ولا يعرف عن أمير جديد قط، أنه لجأ إلى نزع السلاح من رعاياه بل العكس هو الصواب، فهو يسلحهم إذا وجدهم عزلاً إذ بتسليحهم يضمن هذه الأسلحة إلى جانبه، فمن كان منهم موضع شك وريبة غدا مخلصاً موالياً، ومن كان قائماً على الولاء ظل كذلك، وتتحول الرعية عن هذه الطريق إلى مجموعة من المواطنين. ولما كان من المتعذر تسليح

(١) الأمير صفحة ١٥٢ ـ ١٥٣.

جميع المواطنين فإن اخفاء هذا الامتياز على البعض يمكنك من التعامل مع الآخرين بصورة أكثر أمناً واطمئناناً، وهذا التمييز في المعاملة وهو ما يدركه رجالك يجعلهم أكثر التزاماً تجاهك وتعلقاً بك. أما الآخرون فيجدون لك المبرر جازمين بأن من تناولوا السلاح يتصفون بحكم الضرورة بمؤهلات أعظم ويتعرضون لأخطار أكبر ويواجهون مسؤوليات أضخم. أما إذا أقدمت على نزع السلاح منهم فإنك تشرع في الإساءة إليهم مبدياً عدم ثقتك فيهم إما جبناً منك، أو افتقاراً إلى الثقة بنفسك. وكلا هذين الرأيين يولد الكراهية ضدك، وكما كان من المتعذر عليك أن تظل من دون قوات مسلحة، فإنك ستجد نفسك مضطراً إلى اللجوء إلى المتطوعة المرتزقة، . . وهي قوات حتى لو كانت منظمة فإنها لن تكون كافية في إعدادها للدفاع عنك أمام أعداء أقوياء، ورعايا تشك في صدق ولائهم. ولهذا قلت إن الأمير الجديد في ولاية جديدة، يلجأ دائماً إلى تسليح رعاياه وتجنيدهم والتاريخ مليء بالأمثلة على ذلك.

أما عندما يحتل الأمير دولة جديدة يضيفها إلى دولته السابقة، فمن واجبه أن ينزع السلاح من أهل تلك الدولة، باستثناء أولئك الذين وقفوا إلى صفه عند احتلالها، وعليه أيضاً عندما تتاح له الفرصة ويحين الوقت المناسب، أن يضعف هؤلاء الأنصار ويخضعهم، وأن يرتب أموره بحيث يضمن نقل سلاح الدولة الجديدة إلى أيدي جنوده الذين يعيشون على مقربة منه في دولته القديمة. . .

ولن أغفل هنا عن تذكير الأمير الذي احتل حديثاً دولة ما عن طريق العون الخفي الذي قدمه له أهلها، بأن يدرس بإمعان الدوافع التي حفزتهم إلى ذلك، وإذا كانت هذه الدوافع لا تقوم على ما يشعرون به من حب طبيعي له، بل على عدم رضاهم عن شكل الحكم الذي كان قائماً في دولتهم، فإنه سيجد مشقة أعظم وصعوبة أبلغ في الحفاظ

على صداقتهم إذ سيستحيل عليه ارضاؤهم. وإذا ما درسنا أسباب ذلك على ضوء الأمثلة التي قد نستخلصها من الأزمنة القديمة والحديثة تبين لنا أن من الأسهل على الأمير أن يفوز بصداقة أولئك الذين كانوا راضين عن الأوضاع القديمة، وكانوا تبعاً لذلك من الأعداء في البداية، من صداقة أولئك الناقمين الذين غدوا من أصدقائه وساعدوه على احتلال دولتهم»[1].

أما من حيث بناء القلاع والحصون فإن ماكياڤللي يرى: «أن القلاع قد تكون نافعة أو غير نافعة، وفقاً للأوضاع والأزمنة، فقد تجدى في ناحية وقد تكون مضرة من ناحية أخرى، وعلينا أن نتناول الموضوع على الشكل التالي: إن على الأمير الذي يخشى شعبه أكثر من خشيته للأجانب أن يقيم القلاع أما الأمير الذي يخشى الأجانب أكثر من شعبه ففي إمكانه أي يستغني عنها»[2]

أما عن كيفية اكتساب الأمير للشهرة فيقول ماكياڤللي: «لا شيء يوصل الأمير إلى منزلة التقدير والإجلال من إقدامه على المشاريع العظيمة، وتقديمه الدليل على قوته. ولنأخذ مثلاً معاصراً فرديناند ملك الأراغون والملك الحالي لإسبانيا، وقد يصح أن نطلق عليه لقب الحاكم الجديد، لأنه قد ارتقى من منزلة ملك صغير إلى ذروة المجد والشهرة ليصبح ملك المسيحية الأول. وإذا ما درست أعماله تبينت فيها العظمة البارزة فكلها جليل، وكلها فائق للعادة وقد بدأ عهده بمهاجمة غرناطة، فكانت مغامرته هذه الحجر الأساسي في مملكته، وكان يعمل في البداية في أوقات فراغه ووفقاً لأهوائه من دون أن يخشى تدخلاً من أحد، فأشغل بذلك عقول نبلاء قشتالة في مشروعه حتى أنهم من جراء

---

(١) الأمير صفحة ١٦٧ ـ ١٧١.

(٢) نفس المرجع السابق.

حصر تفكيرهم في الحرب لم يتوفر لهم الوقت للتفكير بأي ابتكار أو ابتداع. وهكذا حقق لنفسه الشهرة التي أرادها. وتمكن بالأموال التي أخذها من الكنيسة وجمعها من الشعب من المحافظة على جيوشه ومن خوض تلك الحرب الطويلة التي وضعت أسس قوته العسكرية والتي أتاحت له فرصة الشهرة وذيوع الصيت فيما بعد، يضاف إلى هذا أنه، رغبة منه في القيام بمشاريع أضخم وأكبر، وتحت ستار الدفاع عن الدين، عمد إلى الاضطهاد الديني، فطرد العرب من مملكته وسلبهم كل ما يملكونه وليس هناك من مثل أتعس ولا أكثر شذوذاً من هذا، وقام بمهاجمة إفريقية محتجاً بنفس الذريعة، وقام بمغامرته الإيطالية وشرع أخيراً في الهجوم على فرنسا، وهكذا فقد كان دائماً يبتدع المشاريع العظيمة، مما حير عقول رعاياه وأذهلهم، وجعلهم مشغولين دائماً بالتطلع إلى النتائج. وكانت هذه الأعمال متعاقبة، حتى أن الواحد منها ليتلو الآخر، مما لم يترك مجالاً لأي إنسان ليحس بالاستقرار ويبدأ أي عمل ضده»...

ويلقى الأمير أيضاً بالغ الاحترام إذا برهن على أنه إما أن يكون صديقاً مخلصاً أو عدواً لدوداً. وهذا يعني أن يعلن بلا تحفظ عطفه على إنسان ما، وعداءه على إنسان آخر، ولا ريب أن هذه السياسة أفضل دائماً من البقاء على الحياد، فإذا اشتبكت دولتان مجاورتان لك في حرب فعليك أن تقف منهما ذلك الموقف الذي يؤدي إما إلى خوفك من الدولة المنتصرة أو عدم الخوف منها، وفي كلتا هاتين الحالتين يخلق بك أن تعلن عن موقفك بصراحة وأن تخوض الحرب، إذ إن عدم خوضك إياها في الحالة الأولى يجعلك فريسة سهلة للمنتصر، مما يبعث في نفس المهزوم الرضى والبهجة، ولن تجد سبباً أو مبرراً للدفاع عن موقفك كما لن تلقى أحداً يرحب بك، إذ إن المنتصر أي كان لا يرغب في اتخاذ اصدقاء لا يطمئن إليهم، ولا يسارعون إلى مساعدته في وقت شدته،

أما المهزوم فلن يرحب بك بدوره لأنك لم تخض المعركة إلى جانبه دفاعاً عن قضيته»[1].

أما عن كيفية اختيار الأمير وزراءه والمقربين له والابتعاد عن المنافقين فيقول ماكياڤللي: «ليس اختيار وزراء الأمير بالمسألة القليلة الأهمية، فهم إما أن يكونوا لائقين، أو لا يتفقون مع فطانة الأمير وحسن تبصره بالأمور، والانطباع الأول الذي يتولد لدى الإنسان عن الأمير وعن تفكيره، يكون في رؤية أولئك الذين يحيطون به، فعندما يكونوا من الأكفاء والمخلصين يتأكد الإنسان من حكمة الأمير لأنه استطاع تمييز هذه الكفاءة، والاحتفاظ بهذا الإخلاص، أما إذا كانوا على النقيض من ذلك، ففي وسع الإنسان دائماً، أن يأخذ فكرة سيئة عن الأمير نفسه، إذ إن الخطيئة الأولى التي يقترفها تكون في إساءة اختياره.. وهناك طريقة تمكن الأمير من معرفة وزيره واختياره، وهي طريقة لا تخطىء أبداً، فعندما يفكر الوزير بنفسه أكثر من تفكيره بك، وعندما يستهدف في جميع أعماله مصالحه الخاصة ومنافعه، فإن مثل هذا الرجل لا يصلح لأن يكون وزيراً نافعاً، ولن يكون في وسعك الاعتماد عليه، إذ إن من تعهد إليه مهام دولة الآخرين، يجب أن لا يفكر قط بنفسه وإنما بالأمير، وأن لا يكترث بأي شيء سوى ما يتعلق بالأمير.

وعلى الأمير بدوره لكي يحتفظ بولاء وزيره وإخلاصه، أن يفكر به، وأن يغدق عليه المال ومظاهر التكريم، مبدياً له العطف ومانحاً إياه الشرف وعاهداً إليه بالمناصب ذات المسؤولية، بحيث تكون هذه الأموال ومظاهر التكريم المغدقة عليه كافية، لا تحمله على أن يطمع بثروات أو ألقاب جديدة وبحيث تكون المناصب التي يشغلها مهمة إلى الحد الذي يخشى منه على ضياعها. وعندما تسود مثل هذه العلاقة بين

---

(١) الأمير صفحة ١٧٤ ـ ١٧٦.

الأمراء ووزارئهم، فإن في وسع كل فريق منهم أن يعتمد على الفريق الآخر، أما إذا كان الوضع على النقيض من ذلك فإن النتيجة تكون دائماً مضرة لهذا الجانب أو ذاك.

أما كيفية الإعـراض عن المنافقـين والمداهنـين فليست هناك من طريقة أفضل في وقاية نفسك من النفاق، من أن تجعل الجميع يدركون أنهم لن يسيئوا إليك، إذا ما جابهوك بالحقيقة. ولكن عندمـا يجرؤ كـل إنسان على مجابهتك بالحقيقة فإنك تفقد احترامهم. والأمير العاقل هو من يتبع سبيلاً ثالثاً، فيختار لمجلسه حكماء الرجال، ويسمح لهـؤلاء وحدهم بالحرية في الحديث إليه ومجابهته بالحقائق، على أن تقتصر هذه الحرية على المواضيع التي يسألهم عنها، ولا تتعداها. ولكن عليه أن يسألهم عن كل شيء وأن يستمع إلى آرائهم في كل شي، وأن يفكر في الموضوع بعد ذلك بطريقته الخاصة، وعليه أن يتصرف في هذه المجالس ومـع كل مستشاريه بشكـل يجعله واثقاً من أنـه كلما تكلم بصراحة وإخلاص، كلما كان الأمير راضياً عنه، وعليه بعد ذلك أن لا يستمع إلى أي إنسان، بل يدرس الموضوع بنفسه على ضوء آراء مستشاريه ويتخذ قراراته التي لا يتراجع عنها، أما الأمير الذي يسير على طريقة مغايرة، فيتهور متأثراً بآراء المداهنين والمنافقين، أو يبدل قراراته وفقاً للآراء المتعددة التي تطرح عليه، فإنه يفقد الاحترام والتقدير»[1].

وبعد أن يستعرض ماكيافللي الأسباب التي أدّت إلى فقدان امراء إيطاليا دولهم، وأثر القدر في الشؤون السياسية وطرق مقاومته، وقبل أن يختم كتابه «الأمير» في الحض على تحرير إيـطاليا من الـبرابرة يقـول: «وإني لأختتم حديثي قائلاً: بأن الحظ يتبدل، أما الناس فيبقون ثابتين على أساليبهم، وهم ينجحون طالما أن أساليبهم تتوافق مع الظروف،

---

(١) الأمير صفحة ١٨٠ ـ ١٨٦.

أما عندما تتعارض فإن الفشل سيكون من نصيبهم، وإني لأعتقد أن التهور خير من الحذر، ذلك لأن الحظ كالمرأة، فإن أردت السيطرة عليها، فعليك أن تغتصبها بالقوة، وهي بدورها تسمح بامتلاكها للرجل الشجاع لا لذلك الذي يسير بتمهل وأناة. والحظ شأنه في ذلك شأن المرأة، يميل دائماً إلى الشباب، لأنهم أقل حذراً وأكثر ضراوة ويمتلكونه بقحة وجرأة»[1].

(١) الأمير صفحة ١٩٤ ـ ١٩٥.

الفصل الرابع

ملاحق ونصوص

من كتاب «الأمير»

بنيتو موسُوليني
تعليق عام ١٩٢٤
على كتاب الأمير

حدث ذالت يوم أن أفادني رجال فرق القمصان السوداء في إيمولا Imola أن سيفاً سيهدى إليَّ منقوشاً عليه قول ماكيافللي: «ليست المحافظة على الدول بالكلام». وكان أن وضع حد لترددي وتحدد اختيار موضوع الرسالة الذي أقدمه اليوم لتقترعوا عليه[1]. وبإمكاني تسميته «تعليق عام ١٩٢٤ على كتاب الأمير لماكيافللي». وذلك الكتاب الذي أودّ أن أطلق عليه «ملازم رجل الحكم»[2]. يقتضي، للأمانة الفكرية، أن أذكر أن مراجع رسالتي هذه قليلة، كما سنرى فيما بعد. لقد قرأت كتاب «الأمير» وغيره من مؤلفات ذلك «الأمين العظيم» قراءة واعية، ولكن الوقت والإرادة حالا دون أن أقرأ جميع ما كتب عن ماكيافللي في ايطاليا وفي العالم. وأردت أن أضع بيني وبينه أقل عدد من الوسطاء القدامى أو المحدثين، الايطاليين والأجانب، كي لا أفسد عملية الاتصال المباشر بين مذهبه وحياتي التي عشتها، وبين ما لاحظ ولاحظت عن البشر والأشياء وبين ممارسته للحكم وممارستي له.

---

(١) كان كتاب الأمير موضوع رسالته لنيل درجة الدكتوراه. نشر هذا التعليق في مجلة جراركيا Gerarchia.

(٢) Vade-mecum de L'homme de gouvernement.

وبالتالي يكون ما أتشرف بتلاوته عليكم ليس ذلك الاستطراد المدرسي الفاتر الحافل باقتباسات عن الآخرين. إن ذلك كما أعتقده هو تمثيلية، فيما لو استطعنا أن ننظر بعين الاعتبار إلى محاولة إقامة جسر روحي فوق هوة الأجيال بروح مسرحي معين، ولا أضيف جديداً.

القضية هي: ماذا يبقى خالداً في «الأمير» بعد أربعة قرون من الزمن؟. هل يمكن أن تكون لنصائح ماكيافللي أية فائدة لرجال الحكم المحدثين؟ هل أن قيمة المذهب السياسي لكتاب الأمير هي وقف على العصر الذي كتب فيه، وبالتالي فهي قيمة محدودة بالضرورة وباطلة إلى حد ما؟ أو ليست شاملة وواقعية إلى حدّ ما وخاصة فعالة؟. إن رسالتي تجيب على هذه الأسئلة، وأؤكد أن مذهب ماكيافللي حيٌّ اليوم بعد أربعة قرون. والسبب أنه إذا كانت المظاهر الخارجية لحياتنا قد تغيرت تغيراً كبيراً فإن التغييرات في روح الأفراد والشعوب لم تزل عميقة جداً.

وإذا كانت السياسة هي فن حكم البشر، أو بعبارة أخرى تربية أهوائهم وأنانياتهم ومصالحهم بالنظر إلى غايات نظام عام يكاد أن يخرج دائماً على نطاق الحياة الفردية لأنها غايات تمتد إلى المستقبل. إذا كانت تلك هي السياسة، فلا ريب في أن الإنسان هو العنصر الجوهري لهذا الفن ومن هنا يجب الانطلاق.

ما البشر في المذهب السياسي لماكيافللي؟

ما فكرته عن البشر؟ هل يتفاءل أم يتشاءم؟

حين نقول بشراً، هل يجب علينا أن نفسر اللفظ بمعناه الضيق، وبعبارة أخرى نعني بهم الايطاليين الذين عرفهم ماكيافللي، وحكم عليهم كمعاصرين له، أو نفسره بمعنى البشر فيما وراء الزمان والمكان،

ولكي نستخدم عبارة سامية نقول: بمعنى يدخل «تحت مظهر الخلود» Sub specie Oeternitatis.

قبل الشروع في فحص أكثر تحليلاً لمذهب السياسة الماكيافللية كما تظهر لنا مركزة في «كتاب الأمير»، يبدو لي أنه يقتضي أن نحيط علماً بالفكرة التي كانت عند ماكيافللي عن البشر عـامة، وعن الايـطاليين خاصة، فالواقع ان النتيجة الواضحة، وحتى من قراءة سطحية لكتاب الأمير، هي تشاؤم ماكيافللي العنيف فيما يخص الطبيعة البشرية. إنه يحتقر البشر، شأن هؤلاء الذين أتيحت لهم الفرصة لمعاملة أندادهم معاملة رحبة ومتصلة، ويحب أن يقدمهم إلينا في مظاهرهم السلبيـة كأشدّ ما تكون السلبية، والدنيئة كأحط ما تكون الدناءة.

البشر عند ماكيافللي، خبثاء، يتمسكون بالمصالح المادية أكثر من تمسكهم بحيـاتهم الخـاصـة، وهم عـلى استعـداد لتغيـير أهـوائهم وعواطفهم، ويعبر ماكيافللي عن فكرته هذه في الباب السابع عشر من «كتاب الأمير» هكـذا: «وقد يقـال عن الناس بصـورة عامـة، أنهم ناكرون للجميـل، متقلبون، مـراؤون، ميالـون إلى تجنب الأخطار، وشديدو الطمع وهم إلى جـانبك طالما أنك تفيدهم، فيبذلون لـك دماءهم، وحياتهم وأطفالهم، وكل ما يملكون كما سبق لي أن قلت، طالما أن الحاجة بعيدة نائية، ولكنها عندما تدنو يثورون. ومصير الأمير ـ الذي يركن إلى وعودهم، دون اتخاذ أية استعدادات أخرى ـ إلى الدمار والخراب. إذ إن الصداقة التي تقوم على أساس الشراء، لا على أساس نبل الروح وعظمتها، هي صداقة زائفة تشرى بالمال ولا تكون أمينة موثوقة، وهي عرضة لأن لا تجدها في خدمتك، في أول مناسبة. ولا يتردد الناس في الاساءة إلى ذلك الذي يجعل نفسه محبوباً، بقدر ترددهم في الاساءة إلى من يخافونه، إذ إن الحب يرتبط بسلسلة من الالتزام،

التي قـد تتحطم، بـالنظر إلى أنـانية النـاس، عندمـا يخدم تحـطيمها مصالحهم، بينما يرتكز الخوف على الخشية من العقاب، وهي خشية قلما تمنى بالفشل».

وفيما يخص الأنانية: أعثر بين «الأوراق الماكيافللية» على ما يلي: «إن الناس يحزنون لانتزاع ملكية منهم، حزناً يفوق حزنهم على موت أب أو أخ، لأن الموت ينسى أحياناً أما الثروة فلا تنسى أبداً»، وسبب ذلك بسيط: كل يدري أن تغيير دولة لا يمكن أن يعيد أباً ولكن قد يعيد اكتساب ملكية». وأعثر في الباب الثالث من «المطارحات»[1] على ما يلي:

«أشار جميع كتاب السياسة، عبر التاريخ الطويل إلى أن التاريخ حافل بأمثلة تقيم الدليل على أن من الضروري لمن يعد جمهورية وتعلن فيهـا نظماً، أن يفـترض أن جميع البشر خبثـاء، وهم دائماً عـلى أهبة لاستخدام خبث نفوسهم حين تواتيهم فرصة خاصة لذلك. إن البشر لا يفعلون أي خير أبداً إلا بالضرورة، ولكن هناك حيث تتوفر الحرية، وحينـما يمكن أن تكـون لـدينـا فـوضى، يمتـلىء كـل شيء في الحـال بالاضطراب وعدم النظام».

ومن الممكن أن تستمر الاقتباسات، ولكن هذا غير ضروري. إن الفقرات التي اقتبسناها تكفي لإثبات كون الحكم السلبي على البشر في زمن ماكيافللي ليس عرضياً، ولكنه حكم جوهري. وجلي أيضـاً أن ماكيافللي حين يحكم على البشر كما حكم عليهم، لم يفكر فحسب في أبناء عصره من أهل فلورنسا وأهل توسكانيا والايطاليين الذين عاشوا في أواخر القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر، ولكن في البشر كافة دون حصر زماني ومكاني. أما الزمن فقد انطوت منه حقب

(١) تعريب خيري حماد. منشورات المكتب التجاري. الطبعة الأولى سنة ١٩٦٢.

ولكن لو أتيح لي أن أحكم على أمثالي وعلى أبناء عصري فقد لا أستطيع أن أضعف من حكم ماكيافللي، وقد يكون من واجبي أن أزيد من أهميته.

ماكيافللي نفسه لا ينخدع، وهو لا يخدع الحاكم. إن التعارض في فكر ماكيافللي بين الحاكم والشعب، بين الدولة والفرد تعارض محتوم، وهذا ما أطلقنا عليه تسمية النفعية والبراغماتية. والسلبية الماكيافللية تنبع بصورة منطقية من هذا الموقف المبدئي. يجب أن نفهم من كلمة «أمير الدولة»، وفي فكر ماكيافللي الأمير هو الدولة، أن الدولة تمثل تنظيماً وتحديداً بينما الأفراد تدفعهم أنانية نفوسهم فينزعون إلى الخمود الاجتماعي. الفرد ينزع إلى الهرب باستمرار، ويميل إلى عصيان القوانين وعدم دفع الضرائب والامتناع عن خوض الحرب. وقليل هم الأبطال أو القديسون الذين ضحوا بمصلحتهم على مذبح الدولة وغير هؤلاء جميعاً في حالة ثورة مكبوتة ضد الدولة. إن ثورات القرنين السابع عشر والثامن عشر قد حاولت أن تحل هذا الصراع الذي يكون عند قاعدة وكل تنظيم اجتماعي لدولة، وذلك بأن أظهرت السلطة وكأنها صادرة عن إرادة الشعب الحرة، وهذه خرافة فضلاً عن كونها وهم. فأولاً لم يكن بالامكان تعريف الشعب أبداً، وهذا ككيان شيء أساسي هو كيان مجرد تجريداً بحتاً. إننا لا نعرف معرفة دقيقة لا من أين بدأ ولا أين ينتهي. إن صفة السيادة حين تطبق على الشعب تكون سخرية مؤلمة. الشعب يرسل على أكثر تقدير ممثليه، ولكنه لا يستطيع في الحقيقة أن يمارس أية سيادة. إن النظم التمثيلية تخص الآلية أكثر من الأخلاق. وفي البلاد نفسها التي تستخدم فيها هذه الآلية أعظم استخدام منذ قرون وقرون تأتي ساعات حاسمة لا يطلب فيها من الشعب شيء أكثر من ذلك، لأننا نشعر أن الجواب قد يكون مهلكاً، وننزع من الشعب تيجان السيادة الورقية وهي تيجان مجدية في الأوقات العادية، ونأمره

بأن يرضخ إما لثورة أو لسلم، أو السير نحو حرب مجهولة ولا إجراء آخر، فليس سوى الرضوخ والطاعة أمام الشعب.

وتـرون أن السيادة التي تمنـح للشعب بـاللطف تسحب منـه في اللحظات التي قد يستطيع فيها أن يشعر بالحاجة إليها وتركها له وحده، عندما تكون غير ضارة أو ممدوحة، كذلك وبعبارة أخرى في لحظات الإدارة العادية. هل تتصورون حرباً أعلنت بالرجوع إلى الشعب؟ إن الاستفتاء يسير سيراً حسناً جداً «عندمـا يكون بصـدد اختيار أنسب مكان لوضع نافورة القرية، ولكن عندما توضع المصالح العليا للشعب في الميزان تتقي جيداً الحكومات البيروقراطية أنفسها من أن ترجعها إلى حكم الشعب نفسه. إذاً هنالك على الدوام الصراع بين القوة المنظمة للدولة وبين شرائـع الأفراد والجماعات ويـوجد حتى في النـظم التي صنعتها لنا الموسوعة (Encyclopedie)، التي أخطأت عبر روسو بأن أسرفت في التفاؤل إسرافاً لا يقاس، ولم توجد أبداً نظماً حازت الموافقة المطلقة ويحتمل ألا توجد أبداً. ولقد كتب ماكيافللي في كتاب «الأمير» قبل أن تنشر مقالتي Forzo e consenso بزمن طويل: «ولذلك حدث أن انتصر جميع الأنبياء غير العزل، وهلك الأنبياء العزل. لأن طبيعة البشر متقلبـة، ومن السهـل أن نستميلهم إلى أمـــر من أمـور ولكن من الصعب أن نبقي على إيمانهم هذا. ومن هنا وجب تنسيق الأمور بحيث يمكننا استخدام القوة لنكرههم على الإيمان بما ارتدوا عنـه. لو كـان موسى و كورش ورمولوس عزلاً لما استطاعوا أن يجعلوا غيرهم يمارسون شرائعهم أمداً طويلاً».

بنيتو موسوليني

من نيقولو ماكياڤللي
إلى لورنزو العظيم نجل بيارو دي مديتشي

جرت عادة الناس الذين يرغبون في كسب ود الأمير على محاولة هذا الكسب، بتقديم الهدايا إليه، من الأشياء التي يعتقدون بغلاء ثمنها أو تلك التي يعرفون محبة الأمير لها. وهكذا تنهال في الغالب على الأمراء الهدايا من أمثال الخيول والأسلحة، والملابس المذهبة واللآلىء، وغير ذلك من أدوات الزينة، اللائقة بمكانتهم. ولما كنت راغباً في أن أقدم لسموكم دليلاً متواضعاً على ولائي، لم أعثر في ما أملكه على شيء أعتز به أو أقدره تقديراً فائقاً، كمعرفتي بجلائل الأعمال التي قام بها الرجال العظام، وهي المعرفة التي حصلت عليها بعد تجربة طويلة، وخبرة بالأحداث المعاصرة، ودراسة لوقائع الماضي.

وقد تمكنت بعد طويل جد وكد من التأمل والاستقصاء في أعمال العظماء، وتوصلت إلى نتائج أقدمها إلى سموكم، ضمن إطار مجلد صغير، وعلى الرغم من أنني أعتبر هذا العمل غير لائق بتقبل سموكم، إلا أن إيماني بإنسانيتكم يحملني على الاعتقاد بأنكم ستتقبلون هذا الكتاب، بمزيد من العطف، ثقة منكم بأن ليس في مكنتي أن أقدم إليكم هدية أعظم، من تمكينكم في فترة قصيرة، من فهم جميع الأمور التي تعلمتها؛ منفقاً في تعلمها سنوات طوالاً من الانزواء والمخاطر. ولم أحاول تزويق كتابي بالجمل الطويلة، ولا بالزخاف اللفظية الطنانة، ولا بالحلي الجذابة المصطنعة التي يلجأ إليها الكثير من الكتاب، لتنميق مؤلفاتهم، لأنني لا أطلب مجداً لكتابي أكثر مما يستحقه بفضل

جدة موضوعه ورزانته. وأنا واثق، أن ليس من الغرور في شيء أن يقحم إنسان ذو وضع مغمور ومتواضع، نفسه في محاولة البحث في حكومات الأمراء وتوجيههم، إذ إن مصوري المناظر الطبيعية، يقيمون مراكزهم في الوديان، ليرسموا منها صور القلاع والجبال، ويرتقون التلال ليشرفوا منها على السهول، وليحصلوا على المناظر الصحيحة فيها. وهكذا، من الضروري أن تكون أميراً لتستطيع التعرف بدقة على طبيعة الشعب، كما أن من الضروري أن تكون فرداً من أبناء الشعب لتتمكن من معرفة طبيعة الأمراء.

فهل لي أن أرجو تبعاً لذلك، سموكم، تقبل هذه الهدية الصغيرة، بنفس الروح التي أقدمها فيها، وإذا تلطفتم فاتبعتم ما في هذا الكتاب فستدركون أن رغبتي العارمة، تقوم في أن أراكم تصلون إلى تلك العظمة التي تؤهلكم لها مواهبكم الشخصية، وسعد طالعكم.

وإذا تكرمتم سموكم، فتطلعتم من سامق عليائكم إلى هذه البقعة المتواضعة التي أقيم فيها، فستدركون الآلام العظيمة التي لا أستحقها، والتي شاء سوء طالعي الشرير أن يلحقها بي.

الملكيات المختلطة

إن الصعوبات تواجه دائماً الملكية الجديدة. إذ عندما تكون الدولة من الناحية الأولى ليست بالناشئة حديثاً وإنما بالعضو في دولة مختلطة، فإن الاضطرابات فيها تنبع أولاً من الصعوبة الطبيعية، التي تقوم عادة في جميع الممالك الجديدة، لأن الناس يقبلون على تغيير حكامهم بمحض الرغبة والارادة، آملين في تحسين أحوالهم، لاسيما إذا أثبتت التجارب أنهم قد انتقلوا من حالة سيئة إلى حالة أسوأ منها. وهذه نتيجة حتمية لسبب بديهي آخر وهو ما يلحقه جنود الحاكم الجديد من أذى محتوم بالرعايا في المملكة التي وصل الأمير إلى حكمها، أو ما يؤدي إليه احتلاله من عدد لا حصر له من الأضرار والإساءات.

وهكذا فإنك ستجد أعداءك دائماً، أولئك الذين تضرروا من جراء احتلالك لبلادهم، وليس في مكنتك الاحتفاظ بصداقة أولئك الذين ساعدوك في الحصول على هذه الممتلكات الجديدة، لأنك لن تستطيع تحقيق جميع آمالهم، كما أنك ستكون عاجزاً عن مقابلتهم بالشدة والصرامة بالنظر لما تشعر به من دين لهم عليك. ولهذه الأسباب كلها، مهما كانت جيوشك بالغة القوة فإنك ستحتاج كل الحاجة إلى عطف السكان لتتمكن من احتلال بلادهم. ولعل فيما ذكرت ما يوضح الأسباب التي أدت إلى إخراج لويس الثاني عشر ملك فرنسا من ميلان بعد احتلاله لها بفضل جيوشه القوية بوقت قصير، مع العلم أن

القوات التي أخرجته لم تتعد جيوش لودفيكو الصغيرة التي كانت كافية في البداية لتحقيق هذه الغاية، وذلك لأن السكان الذين فتحوا أبواب مدينتهم طوعاً ورضى في باديء الأمر للملك الفرنسي، سرعان ما وجدوا الآمال التي تعلقوا بها تتلاشى بسرعة البرق، ولأنهم لم يحصلوا على المنافع التي كانوا سيتوقعونها، وهكذا تعذر عليهم احتمال حكم أميرهم الجديد لما في هذا الحكم من استثارة لحفيظتهم.

ومن الحق أن يقال، إن الحاكم، إذا أعاد احتلال مقاطعة ثارت عليه، فإنه لا يضيعها هذه المرة بسهولة، لأنه، وقد جابهته حقيقة الثورة، أضحى أقل عداء للاحتفاظ بمركزه عن طريق معاقبة المذنبين، والكشف عن المشبوهين، وتقوية نفسه في مراكز الضعف. وهكذا فعلى الرغم من أن مجرد ظهور شخص كالدوق لودفيكو على حدود ميلان جعل فرنسا تفقد سيطرتها على المدينة في المرة الأولى، إلا أنها في المرة الثانية لم تتخل عن المدينة، وتفقد سيادتها عليها، إلا بعد أن تألب العالم عليها، وبعد أن هزمت جيوشها وأجبرت على الرحيل عن ايطاليا، وهذا بفضل الدوافع التي شرحتها فيما سلف. ولكنها على كل حال، حسرتها في المرتين الأولى والثانية. وقد شرحت الأسباب العامة التي أدت إلى خسارتها لها في المرة الأولى ولم يبق أمامي إلا أن أشرح أسباب الخسارة في المرة الثانية، وأن أوضح السبل التي كان بإمكان فرنسا اتباعها لتحول دون هذه الخسارة، أو الوسائل التي كان من المحتوم أن يلجأ إليها حاكم آخر غير ملك فرنسا، لو كان في مركزه، والتي لم يلجأ إليها بالفعل. ومن الواجب أن نلاحظ أولاً، أن الدول، التي تتحد بفعل الضم، مع دولة قائمة من قبل، قد تكون أو لا تكون تحمل نفس القومية وتتحدثان بنفس اللغة، فمن السهولة بمكان عظيم الاحتفاظ بالضم، ولاسيما إذا كانت الدولة المضمومة غير

متعودة على الحرية، ومن والواجب في سبيل الاحتفـاظ بهذا الـوضع بعيداً عن كل خطر، أن يقضي نهائياً، على الأسرة التي كانت تحكم في الماضي تلك الدولة. وما تبقى فأمر في غاية البساطة، إذ إن الأوضاع التي كانت سائدة في الماضي لم تتأثر ولم تضطرب، ولذا يعمد الناس فيها إلى الهدوء في ظـل حكامهم الجدد، وهـذا ما يبدو بوضوح في بورغنديا وبريتاني، وغسكونيا ونورمانديا التي اتحدت منذ عهد بعيد مع فرنسا. وعلى الرغم من وجود بعض الفروق في اللغة فإن عادات السكان في جميع هذه البلاد متشابهة إلى حد بعيد، وفي وسعهم أن يسيروا جنباً إلى جنب، وأن يعيشوا متآخين على أحسن ما يرام، وعلى كل من يضع يده على مثل هذه الممتلكات ويود الاحتفاظ بها، أن يجعل نصب عينيه دائماً أمرين في منتهى الأهمية، أولهما إبادة الأسرة الحاكمة السابقة وثـانيهما عدم إحداث تبدل جوهري في قوانين هذه الممتلكات وضرائبها، وبهذه الطريقة يمكن للبلدين أن يتحدا في وقت قصير جداً، وأن يؤلفا دولة واحدة.

ولكن عندما يضم الإنسان مقاطعات تختلف عن ممتلكاته الأصلية في لغة أهلها وقوانينهم وعاداتهم، فإن الصعوبات التي تواجهه تكون عظيمة ويتـطلب تذليلهـا الكثير من حسن الـطالع والعمـل الدائب المستمر، في سبيل الحفاظ على ممتلكاته الجديدة. ولعل من خير الوسائل وأكثرها طمأنينة هو أن يقرر الحاكم الجديد إقامة مقره في الممتلكات الجديدة، وهذا القرار يجعل الامتلاك أكثر سلامة وأطول أمداً، وهو ما فعله الأتراك في بلاد اليونان، إذ على الرغم من جميع الوسائل التي لجأ إليها الأتراك للاحتفاظ باليونان، فإن هذا الاحتفاظ ما كان ممكناً، لو لم ينتقل الأتراك إلى بلاد اليونان للعيش فيها. ووجود المحتل في المنطقة يمكنه من رؤية الاضطرابات عند وقوعها ومعالجتها فوراً، بينما إذا كان

بعيداً عنها، فإنه لا يسمع بنشوبها إلا بعد حين، وبعد أن أن يصبح من العسير علاجها. يضاف إلى هذا، أن المقاطعة المحتلة لن تصبح مسرحاً لشهوات موظفي الحاكم المحتل، وسيكون في مكنة الرعايا الوصول إلى ما يتطلعون إليه من انصاف عن طريق الاتصال المباشر بحاكمهم. ولما كانت رغبة الرعية إظهار الولاء دائماً للحاكم، فإن هذا يحملهم على حبه، أو حتى على مخافته إذا لم يكونوا راغبين في هذا الحب. وإذا كانت إحدى الدول الأجنبية راغبة في مهاجمة تلك الأرض المحتلة، فإن وجود الأمير فيها لا يشجعها على الإقدام على عمل كهذا، إدراكاً منها لما في إخراجه من مقره، من صعوبة ومشقة. ولا ريب في أن العلاج الأفضل، هو إقامة مستعمرات تقيم فيها جاليات في مكان أو مكانين استراتيجيين، إذ إن من الضروري، إما تنفيذ هذه الخطة أو الاحتفاظ بقوات عسكرية كبيرة في البلاد المحتلة. ولا تكلف هذه المستعمرات الأمير شيئاً، إلا النزر اليسير، ففي وسعه أن يرسل الجاليات وأن يقيم أودها في المراحل الأولى بتكاليف جد طفيفة، وفي عمله هذا لن يسيء إلا إلى أولئك الذين تؤخذ منهم أراضيهم وبيوتهم، ليقيم فيها السكان الجدد، وهم لا يؤلفون إلا نسبة ضئيلة من سكان البلاد المحتلة، وهم بعد فقدهم لأراضيهم، أضحوا فقراء مشردين في كل مكان، ليس في وسعهم إلحاق الأذى بالأمير، بينما بقية السكان، لم يصابوا من الناحية الأخرى بسوء، فيحافظوا على هدوئهم بسهولة مخافة الاساءة إلى الحاكم مما يعرضهم لمعاملة تشبه تلك التي لحقت بمن فقدوا أراضيهم. وختاماً فإن هذه المستعمرات لا تكلف الأمير شيئاً. وتكون موالية ومخلصة له وأقل ضرراً من السكان الأصليين، الذين أضحوا فقراء مبعثرين عاجزين كما ذكرت عن إلحاق الأذى بالأمير. ويجب أن نلاحظ أن علينا إما أن نعطف على الناس، أو نقضي عليهم، إذ إن في وسعهم الثأر للإساءات الصغيرة، أما الإساءات الخطيرة البالغة فهم أعجز من أن

يثأروا لها. ولذا إن أردنا الإساءة لإنسان فيجب أن تكون هذه الإساءة على درجة بالغة لا نضطر بعدها إلى التخوف من انتقامه. أما الاحتفاظ بالحاميات بدل الجاليات فيكلف الأمير نفقات أكبر تستنزف جميع موارد تلك الدولة، مما يحيل التملك الجديد إلى خسارة، بالإضافة إلى ما فيه من إساءة، لجميع سكان البلاد المحتلة الذين يرون الجيش معسكراً في أراضيهم. ومثل هذا الشعور بالإساءة يقلب جميع الناس إلى أعداء، قادرين على إلحاق الضرر، إذ إنهم على الرغم من هزيمتهم ما زالوا في بيوتهم وأراضيهم. وهكذا فإن الحاميات على كل حال غير مجدية بينما الجاليات نافعة كل النفع.

وعلى حاكم المقاطعة الأجنبية المحتلة، كما شرحت، أن يقيم من نفسه زعيماً لجيرانه الضعفاء، وحامياً لهم، وأن يحاول إضعاف الأقوياء منهم، وأن يعنى بحمايتهم من غزو حاكم أجنبي آخر، لا يقل عنه قوة وشأواً. وسيجد نفسه في هذه الحالة دائماً مدعواً للتدخل، بين جيرانه المتنازعين بسبب الطموح أو الخوف، بطلب منهم. هذا ما حدث فعلاً عندما دعا الايتوليون، الرومان إلى بلاد اليونان، فكانوا يجدون أنفسهم، يدخلون كل مقاطعة بطلب من أهلها. والقاعدة العامة تنص على أن الأجنبي القوي، عندما يدخل إمارة، فإن الضعفاء من أهلها يصبحون فوراً من أنصاره، يحفزهم إلى ذلك حسدهم لأولئك الذين كانوا يتحكمون في شؤونهم. وهكذا لا يجد الحاكم الجديد صعوبة كبيرة في اجتذاب صغار الوجهاء والمتنفذين إلى صفه، لأنهم يندفعون إلى تأييد الدولة التي أقامها، بمحض رغبتهم الخالصة. وعليه أن يكون على أية حال، واعياً، فلا يمكنهم من الوصول إلى منتهى القوة والسيطرة، وباستطاعته بسهولة عن طريق قواته وتأييد هؤلاء الوجهاء، أن يقضي على الأقوياء في إمارته الجديدة وأن يظل الحاكم المطلق في

جميع شؤون الإمارة. أما الذي لا يسير في حكمه تماماً على هذا الأسلوب الذي شرحت، فسرعان ما يخسر ما حصل عليه. وفي غضون حكمه القصير يواجه متاعب وصعوبات لا حد ها ولا حصر.

وقد اتبع الرومان في جميع المقاطعات التي احتلوها هذه السياسة دائماً، فأقاموا المستعمرات والجاليات، وغرروا بصغار الوجهاء دون أن يضاعفوا من قوتهم، وأخذوا سلطان الأقوياء، ولم يسمحوا للحكام الأجانب بالحصول على النفوذ في بلادهم. وسأعرض بلاد اليونان كمثل فريد من نوعه، فقد اتخذوا من الآخيين، والايتوليين أصدقاء لهم، وقضوا على مملكة مكدونيا وطردوا الانطاكيين، ولم يسمحوا لأصدقائهم الآخيين والايتوليين بتوسيع رقعتهم وبسط سلطانهم، كما لم يصغوا لإغراءات فيليب، الذي نشد صداقتهم، إلا بعد أن أضعفوا من نفوذه، كما لم يسمحوا لأنطيوخوس رغم قوته، بالسيطرة على أي جزء من اليونان

ولم يكن ما عمله الرومان في هذه الحالات، إلا ما يجب أن يعمله الأمراء الحكماء الذين لا يحصرون اهتمامهم بشؤون الحاضر، بل يتعدونها إلى ما يتوقعونه من خلافات في المستقبل، فيتخذون أهبتهم لمواجهتها ودرء أخطارها، إذ إن مجرد توقعها يمكن الإنسان من علاجها بسهولة، أما إذا انتظر مجيئها حتى تقع، فإن العلاج يصبح غير مجد بالنظر إلى تأصل الداء، وهذا ما ينطبق تماماً على الحميات الرئوية، التي يقول الأطباء عنها إنها صعبة التشخيص وسهلة العلاج في البداية، ولكنها تضحى مع مرور الزمن، إذا سمح لها بالبقاء دون علاج سهلة التشخيص ومتعذرة الشفاء. وهذا ما يحدث تماماً في شؤون الدولة، إذ إن تمييز الشرور قبل وقوعها، وهذا ما يتيسر للإنسان العاقل، يمكنه من معالجتها بسهولة. ولكن إذا أدى الافتقار إلى المعرفة، إلى بقائها

واستمرارها حتى أصبح تشخيصها في متناول كل إنسان، تعذر العثور على عـلاج لها. ولذا فإن الرومان، كانوا يلاحظون الاضطرابات قبل وقوعها بأمد بعيد، وكانوا تبعاً لذلك يعـثرون على العـلاج، وجرت عادتهم، على أن لا يسمحوا لها بالازدياد مخافة أن تؤدي إلى حرب، إذ إنهم عرفوا أن الحرب أمر لا يمكن تجنبه، وإنما في الامكان تأجيله وغالباً ما يكون هذا التأجيل، في صالح الجانب الآخـر، ولهذا فقـد أعلنوا الحرب على فيليب وعلى انطيوخوس في اليونان، تجنباً من محاربتهما في ايطاليا، مع أنه كان في وسع الرومان آنذاك، أن يتجنبوا كلا الحربين. ولكنهم لم يختاروا عمل ذلك، ولم يهتموا بأن يقوموا بما نسمعه الآن على كل لسان من ألسنة حكمائنا، وهو أن نتمتع بفوائد التأجيل، وآثروا، أن يكلوا الأمر لفضائلهم وصدق حدسهم، لأن الزمن، قد يلد كل شيء، وقد يتمخض دون اكتراث إما عن الخير أو عن الشر.

ولكن لنعد إلى فرنسا، ونتحرى ما إذا كانت قد قامت بمثل هذه الأمور، ولن أتحدث عن شارل، بل عن لويس، الذي تمكننـا رؤية أعماله بطريقة أفضل، بالنظر إلى أن سيطرته على ايطاليا امتدت زمنياً أمداً أطول. وإذا ما عدنا، تبين لنا أنه قام بعكس ما سبق لي أن قلته تماماً، من الأمور التي يجب عليه أداؤها للحفاظ على حيازتـه لدولـة أجنبية، فقد استدعى البنـادقة الملك لويس للمجيء إلى ايـطاليا، ليحققوا عن طريقه رغبتهم في الحصول على نصف لومبارديا. ولن ألوم الملك على مجيئه، ولا على الدور الذي قام به، إذ إنه مدفوعاً برغبته في وضع أقدامه في ايطاليا، دون أن يكون له أصدقاء في البلاد، بعد أن رأى جميع الأبواب تغلق في وجهه بسبب سلوك سلفه الملك شارل، اضطر إلى قبول أية عروض للصداقة يمكن العثور عليها. وكان من المقـدر لخـططه أن تنجـح بسرعـة، لـولا الأخـطاء التي ارتكبهـا في اجراءاته الأخرى.

فبعد أن استعاد الملك لومبارديا، استرجع فوراً السمعة التي كان شارل قد أضاعها. فقد أذعنت له جنوا، وأصبح الفلورنسيون من أصدقائه وتقدم مركيز مانتولم، ودوقات فيرارا وبنتيفوغلي، وسيدة فورلي، وسادة فانيزا، وبيزارو ورميني وكاميرينو وبيومبينو وسكان لوكا وبيزا وسيينا، تقدموا إليه جميعاً ينشدون وده وصداقته. ولا ريب في أن البنادقة قد أدركوا نتائج طيشهم، وكيف أدت رغبتهم في كسب بعض المدن في لومبارديا، إلى سيطرة الملك على نحو من ثلثي ايطاليا.

ولا ريب في أن الملك، ما كان ليلقى صعوبة تذكر في الاحتفاظ بسمعته وممتلكاته في ايطاليا، لو اتبع القواعد التي شرحتها آنفاً، وفرض يده القوية المطمئنة على جميع هؤلاء الأصدقاء، الكثيري العدد والضعيفي الشأن، والمتخوفين دائماً، إما من الكنيسة أو من البندقية، مما يجعلهم مرغمين على الالتفاف حوله، فيمكنه التفافهم من الاطمئنان تجاه كل من لا يزال يتمتع بالعظمة والقوة. ولكنه بدلاً من ذلك، لم يكد يضع قدمه في ميلان حتى قام بإجراء مضاد، فساعد البابا ألكساندر السادس، على احتلال رومانا. ولم يدرك لغفلته أنه بعمله هذا قد أضعف نفسه بالتخلي عن أصدقائه الذين التجأوا إليه طالبين منه الحماية، وقوّى الكنيسة، بإضافة سلطات زمنية إلى سلطتها الروحية التي تضفي عليها قوة هائلة. وبعد أن اقترف الخطيئة الأولى، اضطر إلى اتباعها بأخطاء أخرى، إذإن رغبته في وضع حد لمطامع الكساندر، وللحيلولة دون صيرورته حاكم تسكانيا حملته على المجيء ثانية إلى ايطاليا. ولم يكتف بما عمله من زيادة قوة الكنيسة وإضاعة أصدقائه، بل امتدت مطامعه إلى مملكة نابولي، واقتسمها مع ملك اسبانيا. وبعد أن كان السيد المطلق لايطاليا، استصحب معه شريكاً، قد يلجأ إليه جميع الطامحين، الذين قد لا يرضيهم حكمه لإنصافهم، وبدلاً من أن

يترك في تلك المملكة ملكاً تابعاً له، خلعه عن عرشه ليأتي بآخر في وسعه أن يخرجه من البلاد.

والرغبة في الامتلاك غريزة طبيعية، وشيء مألوف. وعندما ينجح القادرون على الامتلاك، فإنهم يلقون الثناء دائماً، ولا ينهال عليهم اللوم. أما إذا كانوا عاجزين عن ذلك، ورغم عجزهم، يريدون الامتلاك مهما كان الثمن، فإنهم يقترفون خطيئة تستحق أعظم اللوم. ولهذا، لو كان في مكنة فرنسا، أن تستولي على نابولي، بقواتها ليس إلا، لكان من واجبها أن تفعل ذلك، أما إذا كانت عاجزة فقد كان خطأ منها أن تشترك في ذلك مع اسبانيا، وإذا كنا نجد له المبررات لاقتسام لومبارديا مع البنادقة، لأن هذا الاقتسام كان الذريعة التي لجأ إليها ملك فرنسا لوضع أقدامه في ايطاليا، فإننا لا نجد المبرر لهذا الاقتسام الجديد الذي يستحق اللوم، لأن الضرورة لم تقض به أو تبرره.

وهكذا ارتكب لويس هذه الأخطاء الخمسة: سحق الدول الصغرى، وضاعف في ايطاليا من قوة حاكم واحد، وأتى إلى البلاد بأجنبي قوي، ولم يكلف نفسه عناء الإقامة في البلاد، كما لم يقم فيها أية مستعمرات أو جاليات. وعلى الرغم من هذه الأخطاء، فقد كان باستطاعته لو عاش تجنب أضرارها، لو لم يرتكب الخطيئة السادسة وهي احتلال دولة البنادقة، إذ لو لم يقم بتقوية الكنيسة والاتيان بالاسبان إلى ايطاليا، فإن مثل هذه الخطوة أمر ضروري ومشروع لإخضاع البنادقة واذلالهم. ولكنه بعد اتخاذ تلك الاجراءات، توجب عليه أن لا يوافق مطلقاً على خراب البنادقة، إذ لو كان البنادقة أقوياء، لتمكنوا من الحيلولة بين الآخرين وبين القيام بأية محاولات ضد لومبارديا. أولاً لأنهم لن يوافقوا على أي إجراء لا يضمن المنطقة لأنفسهم، وثانياً لأن الآخرين ما كانوا ليرغبوا في استخلاص المنطقة من

فرنسا ليعطوها بدورهم إلى البندقية وما كانوا أيضاً ليجدوا الجرأة على مهاجمة الفريقين معاً.

ولو ألح إنسان بالقول بأن الملك لويس قد سلّم رومانا لالكساندر ومملكة نابولي لاسبانيا رغبة منه في تجنب الحرب فإني أرد عليه سارداً الأسباب التي سبق لي شرحها، وهي أن على الإنسان أن لا يسمح بقيام اضطراب أو فوضى رغبة منه في تجنب الحرب، إذ إن سماحه، لا يجنبه الحرب، وإنما يؤجلها لمصلحة خصومه. وإذا زعم آخرون أن الملك كان قد وعد البابا بمثل هذا المشروع كمكافأة له على حلّه من رباطه الزوجي، وعلى منحه رتبة الكردينالية لروهان، فإني أرد عليه بما سأقوله فيما بعد عن موضوع عهود الأمراء، والطريقة التي يرعون بها هذه العهود. وهكذا أضاع الملك لويس لومبارديا، لأنه لم يراع أياً من الشروط التي راعاها غيره من الأمراء، الذين احتلوا مقاطعات ورغبوا في الاحتفاظ بها، ولم تكن في هذا الموضوع أية معجزة، وإنما كان أمراً عادياً ومعقولاً. وقد تحدثت في هذا الموضوع مع الكردينال روهان، في مدينة نانت، عندما قام فالنتاين، المسمى بقيصر بورجيا نجل الباب الكساندر، باحتلال رومانا. وقد قال لي الكردينال، إن الايطاليين لا يفهمون شيئاً في شؤون السياسة، إذ لو كانوا يفهمون، لما سمحوا قط للكنيسة بأن تصل إلى هذه الدرجة من العظمة. وقد دلتنا التجارب على أن عظمة الكنيسة في ايطاليا، وقوة اسبانيا فيها، إنما هما من خلق فرنسا، وكان من ثمرة هذا الخلق، أن جاء خراب فرنسا ودمارها. ومن هذا نستخلص قاعدة عامة، يندر أن تخطىء، وهي أن من يسعى إلى تقوية غيره يحكم على نفسه بالخراب والدمار، إذ إن هذه القوة إنما تجيء عن أحد طريقين، إما الحيلة أو القوة العسكرية وكلتاهما، أمر يكون موضع الشك عند ذلك الإنسان الذي ارتفع إلى مرتبة القوة والسلطان.

الاسباب التي حالت دون ثورة مملكة داريوس (دارا) التي احتلها الإسكندر ضد خلفائه بعد موته

إذا أخذنا بعين الاعتبار، المصاعب، التي تلقاها الدول في الاحتفاظ بدولة احتلتها حديثاً، فقد يدهش المرء من رؤية الإسكندر الأكبر، وقد أصبح سيداً لآسيا في غضون بضع سنوات، ثم لا يكاد يحتل هذه المناطق الشاسعة حتى يلقي منيته، مما يوحي بأن جميع هذه الأصقاع ستثور فوراً على حكامها الجدد، ومع ذلك فقد احتفظ خلفاؤه بسيطرتهم، ولم يلقوا من المصاعب، إلا تلك التي نشأت بينهم بسبب أطماحهم الشخصية.

وللرد على هذه الدهشة، أقول، إن التاريخ يعرف من الممالك نوعين تحكمان بطريقتين مختلفتين. فإما أن يحكم المملكة أمير وموظفوه، الذين عينوا وزراء بتفضل وكرم منه. فيساعدونه على إدارة شؤون المملكة. أو أن يحكمها أمير ونبلاء (بارونات)، يحتفظون بمناصبهم، لا بفضل الحاكم وعطفه، بل بفضل دمهم العريق. ولهؤلاء النبلاء مقاطعات يحكمونها، ولهم رعاياهم، الذين يعترفون بهم كأسياد لها، ويرتبطون بالتالي بهم. وللأمير في الدول التي يحكمها الأمراء وموظفوهم ، سلطة أكبر وأوسع إذ ليس في الدولة من يعتبر في منصب الرفعة سواه، وإذا كانت الطاعة مفروضة لغيره، فلأنهم من وزرائه وموظفيه وليست لهم أي اعتبارات خاصة، كما لا يحمل لهم الناس أية عاطفة معينة.

ولعل من الأمثلة على هذين النوعين من الحكومات في عصرنا، حكومة الأتراك، ومملكة فرنسا. فالسلطنة التركية يحكمها حاكم واحد، أما الآخرون فخدمه وموظفوه، وتنقسم المملكة إلى سناجق يبعث إليها الحاكم بموظفين إداريين مختلفين، يعزلهم متى شاء، ويبدلهم متى أراد. أما ملك فرنسا، فيحيط به عدد ضخم من النبلاء الأقدمين، الذين يعترف بهم أبناء رعيتهم، ويحبونهم، ولهم امتيازاتهم الخاصة التي ليس في وسع الملك حرمانهم منها إلا إذا عرض نفسه للأخطار. وإذا درسنا أوضاع هاتين الدولتين، تبين لنا أن من الصعوبة بمكان عظيم احتلال مملكة الأتراك. ولكن إذا تمكنت دولة من احتلالها، فمن السهل الاحتفاظ بها، وقد يكون من السهل، من نواح عدة احتلال مملكة فرنسا، ولكن الاحتفاظ بها، أمر شاق وعسير.

أما سبب الصعوبة في احتلال المملكة التركية، فيقوم في أن المحتل لا يمكن أن يدعي من أمراء تلك المملكة للقيام بمثل هذا العمل، كما لا يسعه أن يأمل في تسهيل مغامرته عن طريق ثورة يعلنها أولئك القريبون من شخص الحاكم كما يتضح من الأسباب التي شرحتها في هذا الفصل. إذ، لما كان هؤلاء جميعاً من العبيد، والمعتمدين على شخص الحاكم، فمن الصعب رشوتهم، وحتى لو تحققت هذه الرشوة، فإنهم أعجز من أن يحملوا الشعب معهم في ثورتهم بسبب العوامل التي ذكرتها. ولذا فإن على كل من يهاجم السلطان التركي، أن يعتمد على قوته لا على الاضطرابات في صفوف العدو، إذ إنه سيواجه جيشاً متحداً ولكنه إذا تمكن من الانتصار عليه، وهزمه في ميدان القتال هزيمة تقعده عن إمكانية حشد جيوش جديدة، فلا يبقى أمام المحتل ما يخافه إلا أفراد أسرة الأمير التركي، وإذا ما قام بإبادتها والقضاء عليها، لم يعد هناك من يخافه، إذ إن الآخرين لا يتمتعون بأية مكانة لدى

الشعب، ولما كان المنتصر، قبل نصره، لم يعلق عليهم الآمال الكبار ففي وسعه بعد انتصاره أن لا يتوجس منهم خيفة.

ويقع العكس بالنسبة للممالك التي تحكم على غرار فرنسا، إذ إن من السهل على الغازي احتلالها، عن طريق استمالة أحد النبلاء في المملكة، لاسيما وأن هناك دائماً عدداً من الساخطين الحاقدين، وآخر من الراغبين في التغيير. وفي وسع هؤلاء، للأسباب التي شرحت، أن يفتحوا الطريق أمامك، وأن يسهّلوا عليك الوصول إلى النصر، ولكنك إذا أردت فيما بعد، أن تحافظ على ما ملكت، فستقوم في طريقك عقبات لا حصر لها، يثيرها أولئك الذين ساعدوك في الماضي، والآخرون الذين تعرضوا لاضطهادك. ولن يكفيك اضطهاد أفراد أسرة الأمير، إذ سيظل دائماً أولئك النبلاء، الذين سيتولون القيادة في كل ثورة جديدة ولما كنت أعجز من أن ترضيهم أو تقضي عليهم، فإنك ستفقد الدولة التي احتللت عندما تحين الفرصة المناسبة.

وإذا درست الآن، طبيعة حكومة داريوس، فستجد أنها كانت مماثلة لنظام الحكم السائد الآن عند الأتراك، ولذا تحتم على الاسكندر أولاً أن يغزو البلاد، وأن يقضي على حكومتها قبل أن يحقق النصر، فلما مات داريوس ظلت الدولة المحتلة أمينة في قبضة الاسكندر بسبب العوامل التي شرحتها. ولو قدر لخلفائه أن يظلوا متحدين لتمتعوا بحكم البلاد أمداً طويلاً، بسلام وهدوء، إذ إن الاضطرابات التي نشأت في البلاد كانت من صنع أيديهم. ولكن من الصعوبة بمكان عظيم امتلاك بلاد بهذه الطريقة كفرنسا، وهذا ما أدى إلى قيام الثورات المتعاقبة في اسبانيا وفرنسا واليونان ضد الرومان، وذلك بسبب تعدد الإمارات في ربوع هذه البلاد إذا ما دامت ذكرى هذه الإمارات قائمة، فإن احتلال الرومان ظل مقلقاً ومعرضاً للانهيار، ولكن عندما تمكن الرومان من

طمس هذه الذكريات نهائياً، تمكنوا بفضل ديمومة الامبراطورية من أن يصبحوا السادة الذين لا ينازعهم في سلطانهم أحد. وعندما كانت المنازعات تنشب بين الرومان أنفسهم، كان في وسع أي من المتنافسين أن يعتمد على تأييد ذلك الجزء من الإمارة الذي أقام سلطته فيها، فقد ظل الرومان وحدهم الحكام المعترف بهم، بعد أن أبيدت السلالات الملكية القديمة. وإذا أمعنا النظر في جميع هذه الأمور تبين لنا دون أن تلحق بنا الدهشة، السبب في السهولة التي تمكن بها الاسكندر من الاحتفاظ بآسيا، وفي الصعوبات التي واجهت الآخرين للاحتفاظ بالبلاد المحتلة مثل بيروس وغيره. ولم يكن هذا الاختلاف ناجماً عن كفاءة المحتل أو عدم كفاءته وإنما عن اختلاف الأوضاع في البلاد المحتلة.

* * *

أولئك الذين يصلون إلى الإمارة
عن طريق النذالة

لما كان ثمة سبيلان آخران للوصول إلى الإمارة، لا علاقة لهما مطلقاً بالحظ أو الكفاءة، فمن واجبنا أن لا نمر بهما مر الكرام، على الرغم من أن هذين السبيلين، تمكن الإفاضة في الحديث عنه لو كنا نعالج موضوع الجمهوريات. وأحد هذين السبيلين، يتلخص في وصول المرء إلى مرتبة الإمارة، عن طريق وسائل النذالة والقبح. أما السبيل الآخر فعن ارتقاء أحد أبناء الشعب سدة الإمارة في بلاده، بتأييد مواطنيه. وسأسرد عند حديثي عن السبيل الأول مثالين. أحدهما قديم، والآخر معاصر، دون أن أتحدث عن مزايا هذا الأسلوب، لاعتقادي بكفايتهما لإقناع كل من يرى نفسه مضطراً لتقليدهما:

- ارتقى اغاتوكليس الصقلي العرش، وهو من أحط الطبقات وأدناها في بلاده، ليصبح ملكاً على سراقوسه. فقد ولد لأب يعمل في صناعة الخزف، ونشأ على حياة امتازت ببالغ الشر والفظاعة في جميع مراحلها. ومع ذلك، فقد صاحبت فظاعته، حيوية في العقل والجسم، فتمكن بعد انضمامه إلى المتطوعة، من الارتقاء في مراتبها حتى وصل درجة قاضي القضاة «بريتور» في سراقوسه. وعندما عين في هذا المنصب، قرر أن يصبح أميراً، وأن يحافظ بالعنف، ودون اللجوء إلى عون الآخرين، على ما منحه إياه الدستور. وأسرّ بنواياه إلى هاميلكار القرطاجي، الذي كان يحارب على رأس جيوشه في صقلية. واستدعى

ذات صباح أهل سراقوسه ومجلس شيوخها، للتشاور معهم في قضايا بالغة الأهمية بالنسبة للجمهورية. وعند إعطائه الإشارة المقررة، قام جنوده بذبح جميع الشيوخ وأثرياء المدينة. وبعد أن تحقق له قتلهم، تمكن من احتلال المدينة وحكمها، دون أن يخشى المنازعات الداخلية. وعلى الرغم من هزيمته مرتين أمام القرطاجيين ومحاصرتهم له في مدينته تمكن من الدفاع عنها، ثم ترك فيها جزءاً من قواته ليواصلوا الدفاع، وغزا بالبقية ساحل افريقية. وتمكن في وقت قصير من تحرير سراقوسه، وإنقاذها من الحصار. وأرغم القرطاجيين، بعد أن ألحق بهم ضربات شديدة على مصالحته، والاكتفاء بسيطرتهم على افريقيا، متخلين عن جزيرة صقلية لأغاتو كليس. وكل من يدرس صفات هذا الرجل وأعماله، يتبين له أن ليس فيها ما يمكن أن يعزي إلى الحظ، لأنه كما قلت، لم يصل إلى مرتبة الإمارة بتعطف من أي إنسان، وإنما بارتقائه سلم المتطوعة، معرضاً نفسه لألوف المشاق والأخطار. وعندما وصل إليها حافظ عليها، بتدابير تنطوي على المشقة والأخطار والشجاعة أيضاً. ولا يمكننا أن نطلق صفة الفضيلة على من يقتل مواطنيه، ويخون أصدقاءه، ويتنكر لعهوده، ويتخلى عن الرحمة والدين. وقد يستطيع المرء بواسطة مثل هذه الوسائل، أن يصل إلى السلطان، ولكنه لن يصل عن طريقها إلى المجد. ولو أخذنا فضائل اغاتو كليس، التي تتمثل في مواجهة الأخطار والتغلب عليها، وفي قوة معنوياته في مقابلة العقبات وإذلالها، لما وجدنا سبباً يدعونا إلى اعتباره أقل مكانة من أي من الزعماء المشهورين. ومع ذلك فإن فظاعته البربرية، وتجرده من الشعور الإنساني، مضافين إلى ما لا حصر له من مظالمه، لا تسمح لنا كلها، باعتباره واحداً من الرجال المشهورين. وليس في إمكاننا أن نعزو إلى الحظ أو الفضيلة، ما حققه، دون الاستعانة بأحدهما.

وفي أيامنا هذه، وفي عهد البابا اليكساندر السادس، نشأ أوليفيروتو دافيرمو، يتيم الأب يرعاه خاله جيوفاني فوغلياني، الذي أنشأه ليكون جندياً منذ حداثته تحت قيادة باولو فيتلّي، حتى إذا تدرب في تلك المدرسة الصارمة، حصل على مركز عسكري ممتاز. وبعد موت باولو، حارب الشاب تحت قيادة أخيه فيتيلوزو. وبعد وقت قصير تمكن بفضل ذكائه، وحاضر بديهته وحيويته، من أن يصبح أحد قادة القوات المحاربة. ولكنه رأى من المهانة لنفسه أن يظل تحت قيادة الآخرين، فعزم على احتلال مدينة فيرمو، بمساعدة بعض مواطني المدينة الذين كانوا يفضلون العبودية على الحرية، وبتأييد فيتلّي. وكتب إلى خاله جيوفاني معرباً عن أشواقه لرؤياه ورؤية مدينته، وعن رغبته في تفقد ممتلكاته، بعد أن غاب عنها هذه المدة الطويلة. وأضاف في رسالته، أنه بالنظر لما لقيه من المتاعب للوصول إلى مراتب الشرف، ورغبة منه في أن يرى مواطنوه أنه لم يضع وقته عبثاً، فإنه يود أن يأتي إلى المدينة بصورة تنطق بالمجد، يرافقه نحو من مائة فارس من أصدقائه وأتباعه. ورجا خاله أن يصدر أوامره بأن يستقبله أهل فيرمو استقبالاً ينطوي على التكريم، لأن مثل هذه الظاهرة، لا تعبر فقط عن حفاوتهم به، أي بأوليفيروتو، بل عن تكريمهم له، أي لجيوفاني، الذي ربّاه وعلّمه. ولم يتقاعس جيوفاني عن الاحتفاء بابن أخته. وحمل أهل مدينته على استقباله وتكريمه، ثم استضافه في منزله. وبعد أن انتظر أوليفيروتو بضعة أيام حتى أعد خطته الشريرة الماكرة، دعا خاله جيوفاني وجميع البارزين من رجال فيرمو إلى وليمة كبرى. وبعد العشاء وما أعقبه من احتفاء مألوف في مثل هذه المآدب، افتتح أوليفيروتو بكياسة بعض المناقشات المهمة، متحدثاً عن عظمة البابا اليكساندر وولده قيصر وعن مشاريعهما. وعندما بدأ جيوفاني والآخرون بالرد عليه،

نهض فوراً على قدميه قائلاً: إن مثل هذه المواضيع يجب أن تبحث في خلوة. ومضى إلى غرفة مجاورة ما عتم أن لحق به إليها جيوفاني والوجهاء الآخرون. وما كادوا يجلسون، حتى هجم عليهم الجنود من مخابئهم فقتلوا جيوفاني وجميع الوجوه. وبعد انتهاء المجزرة، امتطى أوليفيروتو جواده ومر بشوراع البلدة وحاصر دار قاضي القضاة. واضطر الجميع خوفاً منه إلى إطاعته، وتأليف حكومة جديدة نصّبوه عليها أميراً. وبعد أن تم له القضاء على جميع من يخشى شرهم إذا لم يكونوا راضين عنه، أحاط نفسه بجمهرة جديدة من المدنيين والعسكريين، حتى أنه في السنة التي حكم فيها المقاطعة لم يكتف بتوطيد أقدامه في فيرمو فحسب، بل فرض مهابته على جميع جيرانه. وكان من الصعب أن ينهار حكم اغاتوكليس، لو لم يسمح لنفسه، بأن يخدعه قيصر بورجيا عندما اعتقل الأورسيني والفيتلّي في سينيغاغليا، كما ذكرت آنفاً، إذا اعتقل هو أيضاً بعد سنة واحدة من المجزرة الجماعية التي اقترفها، ولقي حتفه مع فيتيلوزو، استاذه في المقدرة والقسوة.

وقد يدهش إنسان من كيفية تمكن اغاتوكليس وأضرابه، بعد حلقة متواصلة من الخداع والخيانات والفظاعات، من أن يعيشوا بأمان واطمئنان سنوات طوالاً في بلادهم، وأن يدافعوا عن أنفسهم ضد الأعداء الخارجين، دون أن يتعرضوا لمؤامرات رعاياهم، على الرغم من أن آخرين لم يتمكنوا، بسبب قسوتهم، من الحفاظ على مراكزهم، في أوقات السلم، بل في أوقات الحروب المضطربة. وللرد على هذه الدهشة أقول إنني أعتقد أن السبب في ذلك ناجم عن الطريقة التي أرتكبت بها الأعمال الفظيعة، وهل كانت طريقة حسنة التنفيذ أم رديئة. وإني لأطلق اسم الطريقة الحسنة، إذا سمح لنا أن نستعمل الحسن للشر، على تلك الأعمال التي دفعت إليها الحاجة إلى الاستقرار

وضمان الأمن، والتي لا تستمر، بل استبدلت فيما بعد، بتدابير نافعة للرعايا، إلى أقصى حد ممكن. أما الطريقة السيئة فتشمل تلك الأعمال الفظيعة، التي رغم قلتها في البداية، ما عتمت أن ازدادت عدداً، بدل أن تقل مع مضي الزمن. وفي وسع أولئك الذين يتبعون الطريقة الأولى أن يصلحوا أوضاعهم مع الله ومع الإنسان، تماماً كما فعل اغاتوكليس. وليس في وسع الآخرين أبداً الحفاظ على أنفسهم وأوضاعهم.

ومن هذا يتبين، أن على المحتل، عند احتلاله لدولة من الدول، أن يتخذ التدابير اللازمة لارتكاب فظائعه، فوراً ومرة واحدة، وأن لا يعود إليها من يوم إلى آخر. وهكذا يتمكن، عن طريق عدم القيام بتبدلات جديدة، من خلق الطمأنينة عند شعبه، واكتسابه إلى جانبه، بواسطة المشاريع النافعة له. أما الذي ينهج نهجاً مغايراً، أما بسبب الجبن، أو المشورة الفاسدة، فإنه يضطر إلى الوقوف دائماً وسيفه في يده، إذ لا يستطيع مطلقاً الاعتماد على رعاياه، لأنهم بسبب تكرر الاساءات الجديدة عاجزون عن الاعتماد عليه. ومن الواجب اقتراف الاساءات مرة واحدة وبصورة جماعية، وهذا يفقدها مزية انتشار التأثير، وبالتالي لا تترك أثراً سيئاً كبيراً. أما المنافع فيجب أن تمنح قطرة فقطرة، حتى يشعر الشعب بمذاقها ويلتذ بها. وفوق كل هذا، على الأمير أن يعيش مع رعاياه، بطريقة لا تحول فيها الطوالع الحسنة أو السيئة، عن متابعته لسيره. فالحاجة التي تنشأ في الأوقات الصعبة، تحتم عليك أن تكون متأهباً لمواجهتها، والخير الذي تعمله قد لا يفيد في مثل هذه الأوقات، لأن الرأي يسود، بأن الحاجة قد فرضته عليك. وهنا لن يكون في وسعك أن تستخلص منه أية فائدة مهما كانت.

الأمور التي يستحق عليها الرجال، ولا سيما الأمراء، المديح واللوم

علينا أن نرى الآن الطرق والقواعد التي يجب على الأمير أن يسير فيها بالنسبة إلى رعاياه وأصدقائه. ولما كان الكثيرون قد أسهبوا في الكتابة عن هذا الموضوع، فإني أخشى أن تبدو كتابتي عنه غروراً مني لا سيما وإنني أختلف في هذا الموضوع خاصة، عن رأي الآخرين. ولكن لما كان من قصدي أن أكتب شيئاً يستفيد منه من يفهمون، فإني أرى أن من الأفضل أن أمضي إلى حقائق الموضوع بدلاً من تناول خيالاته، لا سيما وأن الكثيرين قد تخيلوا جمهوريات وإمارات لم يكن لها وجود في عالم الحقيقة وأن الطريقة التي نحيا فيها، تختلف كثيراً عن الطريقة التي يجب أن نعيش فيها، وأن الذي يتنكر لما يقع سعياً منه وراء ما يجب أن يقع، إنما يتعلم ما يؤدي إلى دماره بدلاً مما يؤدي إلى الحفاظ عليه. ولا ريب في أن الإنسان الذي يريد امتهان الطيبة والخير في كل شيء، يصاب بالحزن والأسى، عندما يرى نفسه محاطاً بهذا العدد الكبير من الناس الذين لا خير فيهم. ولذا فمن الضروري لكل أمير يرغب في الحفاظ على نفسه أن يتعلم كيف يبتعد عن الطيبة والخير، وأن يستخدم هذه المعرفة أو لا يستخدمها، وفقاً لضرورات الحالات التي يواجهها.

وإذا أهملت من جانبي، تبعاً لذلك الحديث عن الأمور المتعلقة بالأمراء الخياليين، وتناولت تلك التي تتعلق بالواقعيين، فإنني أقول: إنْ جميع الرجال ولا سيما الأمراء الذين يوضعون في مناصب رفيعة، يشتهرون بمزايا معينة، قد تكون سبباً في إضفاء المديح أو اللوم عليهم. وهكذا قد يعتبر أحد الأمراء كريماً متحرراً بينما يعتبر الآخر بخيلاً شحيحاً (وقد آثرت استخدام هذا الاصطلاح التوسكاني)، وقد يعتبر أحدهم ذا أريحية والآخر ذا شح وطمع، أو قاسياً فظيعاً، والثاني رحيماً. وقد يعتبر الأول ناكثاً لوعده والثاني وافياً به، أو مخنثاً خائر العزيمة والآخر عنيفاً قوي الشكيمة، أو ودوداً انسانياً والآخر متكبراً متعجرفاً، أو داعراً فاسقاً والآخر نقياً طاهراً، أو صريحاً والآخر ماكراً، أو قاسياً والآخر ليناً أو جاداً والآخر هازلاً أو متديناً ورعاً والآخر كافراً ملحداً، وهكذا دواليك... وإني لأعرف أن كل إنسان يقر ويعترف، أن من الصفات المحمودة في الأمير أن يتصف بجميع ما ذكرت من صفات ترمز إلى الخير، ولكن لما كان من المستحيل أن يمتلكها الإنسان جميعاً وأن يتبعها، لأن الأوضاع الإنسانية لا تسمح بذلك، فإن من الضروري أن يكون من الحصافة والفطنة بحيث يتجنب الفضائح المترتبة على تلك المثالب التي تؤدي به إلى ضياع دولته، وأن يقي نفسه ما أمكن من تلك التي قد لا تؤدي إلى مثل هذا الضياع، على أن يمارسها دون أي تشهير، إذا لم يتمكن من التخلي عنها. وعليه أن لا يكترث بوقوع التشهير بالنسبة إلى بعض المثالب إذا رأى أن لا سبيل له إلى الاحتفاظ بالدولة بدونها، إذ إن التعمق في درس الأمور، يؤدي إلى العثور على أن بعض الأشياء التي تبدو فضائل، تؤدي إذا ابتعت إلى دمار الإنسان. بينما هناك أشياء أخرى تبدو كرذائل ولكنها تؤدي إلى زيادة ما يشعر به الإنسان من طمأنينة وسعادة.

السخاء والبخل

إذا ما عدنا الآن إلى أولى الصفات التي عددناها في السابق، تبين لي أن من واجبي القول: إن من الخير أن يعتبر الإنسان كريماً سخياً، ومع ذلك فإن السخاء على النحو الذي يفهمه العالم، قد يؤدي إلى إيذائك. إذ إن ممارسته على شكل فضيلة، وبالطريقة الصحيحة، لا تؤدي إلى معرفة الناس به، وتجعله عرضة بالتالي، لأن تتهم بالمثلبة المعاكسة. ولكن على الإنسان الذي يرغب في اشتهار أمره بالسخاء بين الناس، أن لا يتغافل عن أي نوع من أنواع العرض الذي ينطوي على التفخيم إلى أقصى الحدود، حتى أن الأمير الذي تكون طبيعته من هذا النوع، سيستنزف عن طريق هذه الوسائل جميع امكانياته، وسيجد نفسه مضطراً في النهاية، إذا أراد الاحتفاظ بشهرته في السخاء، إلى فرض ضرائب ثقيلة على شعبه، وأن يصبح مبتزاً، وأن يقدم على كل عمل يؤدي إلى كسب المال. وإذا ما انحدر إلى مثل هذه الحالة، بدأ شعبه يكرهه، وانفض عن احترامه نظراً لفقره، ويكون بسخائه قد أضر بالكثيرين في سبيل نفع الأقلية وسيشعر بأول اضطراب مهما ضؤل شأنه، ويتعرض للخطر بعد كل مجازفة. وإذا ما أدرك الأمير، ورغب في تغيير نظام معاملته، تعرض فوراً لتهمة الشح أو البخل.

وعلى الأمير، تبعاً لذلك، إذا كان يعجز عن ممارسة فضيلة الكرم دون المجازفة باشتهار أمره، أن لا يتعرض إذا كان حكيماً عاقلاً، على تسميته بالبخل. وسيرى الناس مع مضي الزمن، أنه أكثر سخاء مما

كانوا يظنون، وذلك عندما يرون أنه عن طريق تقتيره أصبح يكتفي بدخله، ويؤمن وسائل الدفاع اللازمة ضد كل من يفكر بإشهار الحرب عليه، ويقوم بمشاريع كثيرة دون أن يرهق شعبه، ويكون بذلك كريماً حقاً مع جميع أولئك الذين لا يأخذ منهم أموالهم وهم كثر للغاية، وشحيحاً مع أولئك الذين لا يهبهم المال، وهم قلة ضئيلة. وقد رأينا في عصرنا الأعمال العظيمة يحققها أولئك الذين يوصمون بالبخل. أما الآخرون فمصيرهم إلى الدمار. وعلى الرغم من أن البابا يوليوس الثاني قد اشتهر بالكرم واستعمل شهرته هذه في سبيل ارتقاء سدة البابوية، إلا أنه لم يحاول الاحتفاظ بالكرم بعد ذلك، ليؤمن الوسائل اللازمة لتمكينه من شن الحروب. وقد قام ملك فرنسا الحالي بشن عدد من الحروب دون أن يفرض على شعبه أية ضرائب استثنائية، لأنه غطى بتقتيره الماضي جميع النفقات الطارئة التي تعرض لها. ولو كان ملك اسبانيا الحالي كريماً سخياً، لما تمكن من إقحام نفسه في هذا العدد الكبير من المشاريع التي تكللت جميعها بالنجاح.

ولهذه الأسباب كلها، على الأمير أن لا يكترث كثيراً باشتهاره بالبخل، هذا إذا رغب في تجنب سرقة شعبه، وفي أن يكون قادراً على الدفاع عن نفسه، وتجنب الفقر وما يرافقه من مهانة، وأن لا يجبر نفسه على سلب الناس أموالهم، فالشح هو إحدى الراذئل التي تمكنه من أن يحكم. وإذا قيل أن قيصر قد حصل على الامبراطورية عن طريق سخائه، أو أن الكثيرين غيره، قد وصلوا إلى أعلى الرتب بالسخاء، أو بتظاهره على الأقل، فإني أرد على ذلك بقولي: إنك إما أن تكون أميراً، أو في طريقك إلى الإمارة. ويكون السخاء في الحالة الأولى مضراً، أما في الثانية، فمن الضروري حتماً أن يعتبرك الناس كريماً جواداً. ولقد كان قيصر أحد أولئك الذين تاقوا لسيادة روما، ولكنه بعد أن حقق

لنفسه هذه السيادة، لو عاش وما اعتدل في نفقاته، لدمر تلك الامبراطورية تماماً. وإذا كان ثمة من يرد عليّ قائلاً، إن هناك عدداً كبيراً من الأمراء، حققوا أشياء عظيمة عن طريق جيوشهم، وكانوا مع ذلك، يعتبرون على غاية الجود والسخاء. فإنني أجيبهم قائلاً: إن الأمير إما أن ينفق ثروته الشخصية أو ثروة رعاياه أو ثروات الآخرين. وعليه في رأيي أن يوفر ثروته، أما بالنسبة إلى الثروات الباقية فعليه أن لا يهمل، أن يكون جواداً معطاءاً. ولا ريب في أن الجود ضروري للأمير الذي يزحف على رأس جيوشه، ويعيش على ما ينهبه ويسلبه ويحصل عليه من الفديات ويتصرف بأموال الآخرين، إذ لو لم يكن سخياً لما تبعه جنوده. وقد تكون كريماً جداً وحقاً فيما لا يخصك أو يخص رعاياك كما فعل سيروس وقيصر والإسكندر، إذ إن انفاقك أموال الآخرين لا يقلل من شهرتك بل يرفع من قدرها، بينما إنفاقك لأموالك، يلحق بك الضرر. وليس هناك ما هو أشد ضرراً على نفسك من الجود والكرم. إذ باستعمالك له تفقد قدرتك على استخدامه، وتصبح إما فقيراً وإما حقيراً، أو إذا رغبت النجاة من الفقر تضحى نهاباً سلاباً، يكرهك رعاياك. وعلى الأمير أن يتجنب قبل كل شيء، أن يوصم بالحقارة، أو يتعرض للكراهية، ولا ريب في أن الكرم سيقوده إلى إحدى هاتين النتيجتين. ولذا فمن الأفضل أن تكون بخيلاً، فهذا يعرضك للتحقير دون الكراهية، على أن تكون مرغماً بدافع الحاجة إلى أن تصبح لصاً سلاباً، مما يعرضك للتحقير والكراهية معاً.

الرأفة والقسوة
وهل من الخير أن تكون محبوباً أو مهاباً

إذا ما استطردنا في حديثنا إلى الصفات الأخرى التي ذكرناها سابقاً، فإني أرى أن على كل أمير أن يرغب في أن يعتبره رعاياه رحيماً لا قاسياً فظيعاً. ولكن عليه مع ذلك، أن لا يسيء استعمال هذه الرحمة. وقد اعتبر قيصر بورجيا من القساة الغلاظ القلوب. ولكن قسوته، جاءت بالنظام والوحدة إلى رومانا وفرضت عليها الاستقرار والولاء. وإذا أمعنا النظر في هذا الموضوع، تبين لنا أنه كان أكثر رأفة من الشعب الفلورنسي، الذي سمح رغبة منه في تجنب صفة القسوة والغلظة بتدمير بيستويا. ولذا على الأمير أن لا يكترث بوصمه بتهمة القسوة، إذا كان في ذلك ما يؤدي إلى وحدة رعاياه وولائهم. ولو سردنا بعض الأمثلة لتبين لنا أنه أكثر رأفة من أولئك الذين يفرطون في الرقة، فيسمحون بنشوب الاضطرابات التي ينجم عنها الكثير من سفك الدماء والنهب والسلب. ويتضرر من مثل هذه الأحداث عادة مجموع الرعية، بينما لا تصيب الأحكام التي يصدرها الأمير إلا بعض الأفراد. ويستحيل على الأمير الجديد، من دون الأمراء جميعاً، أن ينجو من سمعة القسوة والصرامة، ذلك لأن الدول الجديدة تتعرض دائماً للأخطار الكثيرة. ولقد قال فرجيل على لسان ديدو:

«على كل أمير، أن يواجه الحالات الحرجة ومقتضيات الملك

الجديدة باتخاذ التدابير المناسبة وحماية الملك بإقامة حراس على مسافات بعيدة».

ومع ذلك، عليه أن يكون حذراً، في تصديق ما يقال له، وفي العمل أيضاً، وأن لا يخشى من ظله الخاص به. وأن يسيطر بطريقة معتدلة، يلفها حسن التبصر والإنسانية حتى لا تؤدي به ثقته المفرطة، إلى الإهمال، وعدم الاهتمام، ويطوح بـه حياؤه إلى التعصب وعـدم التسامح.

وهنا يقوم السؤال عمّا إذا كان من الأفضل أن تكون محبوباً أكثر من أن تكون مهاباً. أو أن يخافك الناس أكثر من أن يحبوك. ويتلخص الرد على هذا السؤال، في أن من الواجب أن يخافك الناس وأن يحبوك، ولكن لما كان من العسير أن تجمع بين الأمرين فـإن من الأفضل أن يخافوك على أن يحبوك، هذا إذا توجب عليك الاختيار بينهما، وقد يقال عن الناس بصورة عامة، أنهم ناكرون للجميل، متقلبون، مراؤون ميالون إلى تجنب الأخطار، وشديدو الطمع. وهم إلى جانبك، طالما انك تفيدهم، فيبذلون لك دماءهم، وحياتهم، وأطفالهم، وكـل ما يملكون كما سبق لي أن قلت، طالما ان الحاجة بعيدة نائية، ولكنها عندما تدنو يثورون. ومصير الأمير - الذي يركن إلى وعودهم، دون اتخاذ أية استعدادات أخرى - إلى الدمار والخراب. إذ إن الصداقة التي تقوم على أساس الشراء، لا على أساس نبل الروح وعظمتها، هي صداقة زائفة تشرى بالمال ولا تكون أمينة موثوقة، وهي عرضـة لأن لا تجدهـا في خدمتك، في أول مناسبة. ولا يتردد الناس في الاساءة إلى ذلك الذي يجعل نفسه محبوباً، بقدر ترددهم في الاساءة إلى من يخافونه، إذ إن الحب يرتبط بسلسلة من الالتزام، التي قد تتحطم، بالنظر إلى أنانية الناس، عندما يخدم تحطيمها مصالحهم، بينما يرتكز الخوف على الخشية

من العقاب وهي خشية قلما تمنى بالفشل.

ومع ذلك، على الأمير أن يفرض الخوف منه بطريقة يتجنب بواسطتها الكراهية إذا لم يضمن الحب، إذ إن الخوف وعدم وجود الكراهية قد يسيران معاً جنباً إلى جنب. وفي وسع الأمير الذي يمتنع عن التدخل في ممتلكات مواطنيه ورعاياه، وفي نسائهم، أن يحصل عليهما. وعندما يضطر الأمير إلى سلب إنسان حياته، عليه أن يتوخى المبرر الصالح والسبب الواضح لذلك، ولكن عليه قبل كل شيء أن يمتنع عن سلب الآخرين ممتلكاتهم، إذ إن من الأسهل على الإنسان، أن ينسى وفاة والده، من أن ينسى ضياع إرثه وممتلكاته. ويضاف إلى هذا أن المبررات لمصادرة الممتلكات، متوفرة دائماً. وكل من يبدأ في الحياة على النهب والسلب، يجد مبرراً لسلب الآخرين ما يملكون، بينما أسباب القضاء على حياتهم أكثر ندرة وأسرع زوالاً.

ولكن عندما يكون الأمير مع جيشه، وتحت تصرفه عدد كبير من الجنود، فمن اللازم اللازب أن لا يكترث كثيراً فيما إذا أطلق الناس عليه لقب الصارم، إذ بدون مثل هذه الشهرة يستحيل عليه الإبقاء على جيشه موحداً، خاضعاً للنظام والواجب. وكانت هذه الصفة من الصفات البارزة في هانيبال، إذ على الرغم من قيادته لجيش لجب يتألف من رجال من مختلف الجنسيات، ويقاتل في بلاد أجنبية، لم يقع أي نزاع بينهم، أو يظهر أي عصيان للأمير، لا في أوقات سعده ولا في فترات نحسه. ومثل هذا الوضع لا يمكن أن يعزى إلا لصرامته التي تنبو على حدود الإنسانية، وهي إذا ما أضيفت إلى فضائله الأخرى التي لا حصر لها، فقد جعلت منه دائماً إنساناً مهاباً ومخيفاً في عيون جنوده، ولو لم تكن فيه، لما كانت فضائله الأخرى كافية لإحداث ذلك التأثير. ويميل الكتّاب الذين يفتقرون إلى التفكير، إلى تمجيد أعماله من ناحية،

وإلى توجيه اللوم إلى العامل الرئيسي الذي كان السبب في هذه الأعمال.

ولا ريب في أن هذه الحقيقة التي ذكرت، من أن الفضائل الأخرى قد لا تكون كافية. وقد تبدو في قضية شيبيو (المشهور لا بالنسبة إلى عصره، بل إلى جميع العصور التي تعيش فيها ذكراه)، فقد ثارت عليه جيوشه في اسبانيا، ولم تقم ثورتها إلا بسبب إغراقه في اللين واللطف، مما أدى إلى السماح للجنود بأشياء لا تتفق مع النظام العسكري. وقد وجه إليه فابيوس مكسيموس اللوم في ندوة مجلس الشيوخ على ذلك، متهماً إياه بإفساد المتطوعة الرومان. وكان أحد ضباط شيبيو قد أنزل الدمار بلوكري، فلم يثأر هذا منه، كما لم يعاقب شيبيو ضابطه على حماقته لإفراطه في اللين. ومع ذلك، فقد رغب الكثيرون في تبرير أعماله في مجلس الشيوخ وقالوا، إن ثمة كثيرين يعرفون كيف لا يخطئون، أكثر من معرفتهم كيف يصلحون أخطاء الآخرين. ومثل هذا الموقف كان كافياً لتشويه سمعة شيبيو لو عاش في ظل الامبراطورية ولكنه لما كان يعيش في ظل مجلس الشيوخ، فإن هذه الصفة المؤذية، لم يقدر لها الاختفاء فحسب، بل قدر لها أن تكون مصدراً لمجده.

وإنني لأنهي القول تبعاً لذلك عن موضوع الحب والخوف قائلاً إن الناس يحبون تبعاً لأهوائهم وإرادتهم الخاصة، ولكنهم يخافون وفقاً لأهواء الأمير وإرادته. والأمير العاقل هو الذي يعتمد على ما يقع تحت سلطانه لا تحت سلطان الآخرين، وعليه فقط أن يتجنب الكراهية لشخصه كما سبق لي أن أوضحت.

كيف يتوجب على الأمير
أن يحافظ على عهوده

لا ريب في أن كل إنسان يدرك أن من الصفات المحمودة للأمير، أن يكون صادقاً في وعوده وأن يعيش في شرف ونبل لا في مكر ودهاء. لكن تجارب عصرنا أثبتت أن الأمراء الذين قاموا بجلائل الأعمال، لم يكونوا كثيري الاهتمام بعهودهم والوفاء بها، وتمكنوا بالمكر والدهاء، من الضحك على عقول الناس وإرباكها. وتغلبوا أخيراً على أقرانهم من الذين جعلوا الإخلاص والوفاء رائدهم.

وعليك أن تدرك أن ثمة سبيلين للقتال. أحدهما بواسطة القانون والآخر عن طريق القوة. ويلجأ البشر إلى السبيل الأول أما الحيوانات فتلجأ إلى السبيل الثاني. ولكن لما كانت الطريقة الأولى غير كافية لتحقيق الأهداف عادة، فإن على الإنسان أن يلجأ لذلك إلى الطريقة الثانية. ومن الضروري للأمير أن يعرف استخدام الطريقتين معاً، أي طريقة الإنسان وطريقة الحيوان. وهذا ما نصح به قدماء الكتاب الحكام في الماضي، مستشهدين بأخيل وغيره من الأمراء الأقدمين الذين عهد بهم إلى شيرون القنطور الخرافي (حيوان) لتربيتهم وتعليمهم على نظامه. وهذا الرمز الخرافي، نصف الإنسان ونصف الحيوان قصد منه أن يشير إلى أن الأمير يجب أن يتعلم الطبيعتين الإنسانية والحيوانية وأن إحداهما لا يمكن أن تعيش بدون الأخرى.

وعلى الأمير الذي يجد نفسه مرغماً على تعلم طريقة عمل الحيوان،

أن يقلد الثعلب والأسد معاً، إذ إن الأسد لا يستطيع حماية نفسه من الأشراك، والثعلب لا يتمكن من الدفاع عن نفسه أمام الذئاب. ولذا يتحتم عليه أن يكون ثعلباً ليميز الفخاخ وأسداً ليرهب الذئاب. وكل من يرغب في أن يكون مجرد أسد ليس إلا، لا يفهم هذا. وعلى الحاكم الذكي المتبصر أن لا يحافظ على وعوده عندما يرى أن هذه المحافظة تؤدي إلى الإضرار بمصالحه، وأن الأسباب التي حملته على اعطاء هذا الوعد لم تعد قائمة. ولو كان جميع الناس طيبين، فإن هذا الرأي لا يكون طيباً، ولكن بالنظر إلى أنهم سيئون، وهم بدورهم لن يحافظوا على عهودهم لك، فإنك لست ملزماً بالمحافظة على عهودك لهم. ولن يعدم الأمير الذي يرغب في إظهار مبررات متلونة للتنكر لوعوده، ذريعة مشروعة لتحقيق هذه الغاية. وفي وسع الإنسان أن يورد عدداً لا يحصى من الأمثلة العصرية على هذه الحقيقة، وأن يظهر، كم من المرات، تنكر الأمراء لمواثيق السلام، فنقضوا معاهداتهم، وكم من المرات أضحت عهودهم لا قيمة لها من جراء تنكرهم لها، وأن يبرهن على أن أولئك الذين تمكنوا من تقليد الثعلب تقليداً طيباً قد نجحوا أكثر من غيرهم. ولكن الضرورة تحتم على الأمير الذي يتصف بهذه الصفة، أن يجيد إخفاءها عن الناس، وأن يكون مداهناً كبيراً، ومرائياً عظيماً. ومن طبيعة الناس أن يكونوا من البساطة والسهولة بحيث يطيعون الاحتياجات الراهنة، ولذا فإن من يتقن الخداع، يجد دائماً أولئك الذين هم على استعداد لأن تنطلي عليهم خديعته.

وسأكتفي بسرد مثل عصري واحد. فالبابا اليكساندر السادس لم يقم بأي عمل سوى خداع الآخرين، ولم يفكر بأي شيء سوى ذلك. وكان يجد دائماً الفرصة للنجاح في خداعه. ولم يكن ثمة من يفوقه مهارة، في تقديم الوعود، وإغداق التأكيدات، داعماً إياها بالأيمان

المغلطة، في الوقت الذي لم يكن هناك من هو أقل تمسكاً بها. ومع ذلك فقد نجح دائماً في خداعه، إذ إنه كان يتقن هذه الطريقة في معالجة الأمور.

وليس من الضروري تبعاً لذلك، بالنسبة للأمير، أن يتصف بجميع ما أوردته من صفات، ولكن من الضروري أن يتظاهر على الأقل بوجودها فيه. وقد أجرؤ فأقول إن حيازة هذه الصفات وتطبيقها دائماً قد يؤديان إلى تعرضه للأخطار. أما التظاهر بحيازتها فكثيراً ما يكون أمراً مجدياً. وهكذا فمن الخير أن تتظاهر بالرحمة وحفظ الوعد والشعور الإنساني النبيل والاخلاص والتدين، وأن تكون فعلاً متصفاً بها، ولكن عليك أن تعد نفسك، عندما تقتضي الضرورة، لتكون متصفاً بعكسها. ويجب أن يفهم، أن الأمير، ولاسيما الأمير الجديد، لا يستطيع أن يتمسك بجميع هذه الأمور التي تبدو خيرة في الناس، إذ إنه سيجد نفسه مضطراً للحفاظ على دولته، لأن يعمل خلافاً للإخلاص للعهود، وللرأفة والإنسانية والدين. ولذا فإن من واجبه أن يجعل عقله مستعداً للتكيّف مع الرياح، ووفقاً لما تمليه اختلافات الجدود والحظوظ، وأن لا يتنكر لما هو خير، كما قلت، إذا أمكنه ذلك، شريطة أن ينزل الاساءة والشر، إذا ما اضطر إلى ذلك وضويق.

وعلى الأمير أن يكون حريصاً، على أن لا يفضح نفسه بأقواله، مما يتناقض مع هذه الصفات الخمس التي أشرت إليها. وعليه أن يجعل الناس يرون فيه، ويسمعون منه الرحمة مجسدة، والوفاء للعهود، والنبل والإنسانية والتدين. ولعل هذه الصفة الأخيرة هي أكثرها لزوماً وضرورة، لأن الناس عموماً يحكمون بعيونهم أكثر من أيديهم، ولأن في وسع كل إنسان أن يرى، بينما لا يشعر إلا القليلون. فجميع الناس يرون ما تعمل، وكيف تبدو لهم، أما القلة فيحسون حقيقتك،

وستردد هذه القلة في معارضة رأي المجموع، الذين يعتمـدون على جـلال الدولـة في الدفـاع عنهم. وفي أعمال جميـع الناس، ولاسيـما الأمراء، وهي حقيقة لا استثنـاء فيها، تـبرر الغايـة الواسـطة. وإذا استهدف الأمير مثلاً أن يحتل، عليه أن يحافظ على الدولة التي أحتلها، فإن جميع الناس سيطرون عمله، ويعتبرونه مثالاً للشرف، إذ إن من عادة الدهماء أن تغرهم المظاهر ونتائج الأحداث. ويتألف العالم من الدهماء، أما القلة الذين لا يعتبرون من الدهماء، فهم معزولون عن الناس عندما يقرر المجموع شيئاً يرونه في أميرهم. وهناك أمير معين، يعيش في عصرنا، يحسن بنا أن نغفل ذكر اسمه، جعل همه، الدعوة إلى السلام والوفاء للمواثيق، بينما هو في الحقيقة عدو لدود لهما، ولو قدر له أن يرعى أحدهما، لأضاع دولته وسمعته في كثير من المناسبات التي تعرض لها.

واجبنا تجنب التعرض للاحتقار والكراهية

لما كنت قد تحدثت عن أهم الصفات المتعلقة بهذا الموضوع، فإنني سأتحدث الآن باختصار، وبصورة عامة، عن المتبقي منها. ولقد سبق لي أن قلت، إن على الأمير، أن يتجنب كل ما يؤدي إلى تعرضه للاحتقار والكراهية. وعندما ينجح في ذلك يكون قد قام بدوره، ولا يرى خطراً في الرذائل الأخرى. ولقد قلت إنه يتعرض للكراهية بصورة عامة، إذا أصبح سلاباً نهاباً، يغتصب ممتلكات رعاياه ونساءهم، وهو ما يجب أن يتجنبه. وعندما يتحاشى الأمير الاعتداء على أملاك عامة الناس وأعراضهم، فإنهم يعيشون راضين قانعين، ولا يتعرض إلا لمكافحة مطامع القلة من الناس الذين في وسعه أن يكبح جماحهم بمختلف السبل والوسائل. وقد يعتبر الأمير دنيئاً حقيراً إذا رأى الناس فيه تقلبه، وتفاهته، وتخنثه، وجبنه، واستخذاءه، وهي أمور يجب أن يقي الأمير نفسه منها، على اعتبار أنها الصخرة التي تمثل الخطر، وأن يدبر أمره بحيث تبدو من أعماله مخائل العظمة والحيوية، والرصانة والجلد. أما بالنسبة إلى حكم رعاياه، فعليه أن تكون أحكامه مبرمة لا تقبل النقض، وأن يتمسك بقراراته، فلا يسمح لإنسان بخديعته أو الاحتيال عليه.

ويتمتع الأمير الذي يخلق لنفسه مثل هذه السمعة عند رعاياه بشهرة عظيمة، ومن الصعب أن يتآمر الناس على صاحب الشهرة والصيت العظيمين، كما أن من العسير أن يهاجم، لا سيما وأن من

المعروف عنه القدرة، واحترام رعيته له. وعلى الأمير أن يخاف من ناحيتين: الأولى داخلية وتتعلق برعيته، والثانية خارجية وتتعلق بالدول الأجنبية. وفي وسعه أن يدفع عن نفسه عدوان الأجنبي بحيازة الأسلحة القوية والأصدقاء الخلص. ومثل هؤلاء الأصدقاء يكثرون، إذا توفر له السلاح والقوة. وتظل الجبهة الداخلية دائماً هادئة، إذا لم تخلق المؤامرات الاضطراب فيها، ولم يقع عليها أي عدوان من الخارج. وحتى لو حاولت الدول الأجنبية مهاجمته، فإنه يستطيع - إذا كان حكمه وحياته، قد سارا على غرار ما قلت، وإذا صمد بدوره في موقفه - أن يحتمل كل هزة، كما فعل نابيس الاسبرطي، وفقاً لما ذكرت آنفاً. أما بالنسبة إلى الرعايا، وحتى لو لم يتعرضوا لأي تأثير خارجي، فإن الخطر يظل ماثلاً في تآمرهم عليه بصورة سرية، وهو ما يستطيع الأمير وقاية نفسه منه جيداً، بتجنب التعرض لكراهيتهم واحتقارهم، والحفاظ على رضاهم من معاملته، وهو ما يتحتم عليه فعله، كما سبق وأوضحنا بإسهاب، في فصل سابق. ولعل خير علاج واق من المؤامرات أن لا يكون الأمير مكروهاً من جماهير شعبه، إذ إن كل ما يقدم على التآمر يخيل إليه أنه سيرضي الشعب بقتل الأمير، أما إذا اعتقد أنه يسيء إلى الشعب بعمل كهذا، فإنه سيتردد في إقحام نفسه في مشروع كهذا، ذلك أن الصعوبات التي يواجهها المتآمرون لا عد لها ولا حصر. وتظهر لنا التجارب أن ثمة مؤامرات كثيرة، جرت في الماضي، ولكن القليل منها قد نجح. ذلك لأن المتآمر لا يستطيع أن يعثر على شركاء له، إلا بين الناقمين الساخطين. وعندما تجهر بنواياك لإنسان ناقم، تقدم له الواسطة لإرضاء دخيلته، لأنك بهذا الجهر قد بعثت في نفسه الأمل بالحصول على ما يريد، وهو بهذا قد يقنع نفسه بمجرد العلم، إذ إنه يرى في ذلك بعض الفوائد التي يتوقعها، بينما يرى

في اشتراكه العملي، من الناحية الأخرى، سبيلاً خطراً ينطوي على الشك. ولكي يشترك معك، ويكون صادقاً في اشتراكه يجب أن يكون أحد اثنين، إما صديق مخلص للغاية لك، أو عدو لدود للأمير. ولأعرض الموضوع في بضع كلمات أقول: إن المتآمر لا يجد إلى جانبه إلا الخوف والحسد والريبة والفزع من العقاب الذي يلقي الرعب في قلبه، بينما يجد الأمير إلى جانبه جلال الحكم والقانون، وحماية الأصدقاء والدولة، التي تقف على حراسته. وإذا ما أضفنا إلى ذلك حسن نية الشعب، تبين لنا أن من المستحيل لأي إنسان أن يجد في نفسه القدرة على التهور في مؤامرة إذ إن على المتآمر بصورة عامة أن يخشى قبل تنفيذ مؤامرته، في مثل هذه الحالة، عداء الشعب، ولو قدر لجريمته النجاح أيضاً، فهو لا يأمل في العثور على ملجأ يقيه غضب الشعب.

وقد تكون الأمثلة على ذلك كثيرة، ولكنني أكتفي بسرد حادثة وقعت في أيام آبائنا. فقد قتل المتآمرون من أسرة الكانيشي، السيد هانيبال بنتفوغلي أمير بولونا، وجدّ الأمير الحالي السيد هانيبال. ولم يكن للأمير القتيل أي أقارب إلا السيد جيوفاني الذي كان طفلاً، ولكن شعب بولونا ثار عن بكرة أبيه وقتل جميع أفراد أسرة كانيشي. وبالطبع كان هذا الموقف ناجماً عما تتمتع به أسرة بنتفوغلي من حب الشعب وتأييده، مما حمل هذا الشعب بعد قتل هانيبال، وبعد عدم العثور على إنسان من أسرته يتولى الحكم، على البحث والتنقيب حتى عثر على شخص يعيش في فلورنسة، كان والده حداداً، يمت إلى الأسرة بصلة القرابة، فجاء به الشعب إلى المدينة وولاه حكمها، حتى يبلغ الطفل جيوفاني سن الرشد، ويتولى حكم مدينته.

وأستنتج من هذا، تبعاً لذلك، أن على الأمير أن لا يخشى كثيراً من المؤامرات إذا كان الشعب راضياً عنه، أما إذا كان مكروهاً، ويحس

بعداء الشعب له، فإن عليه أن يخشى من كل إنسان ومن كل شيء. وقد جرت عادة الدول المنظمة والأمراء العقلاء أن لا يدفعوا بالنبلاء إلى درجة البأس، وأن يرضوا الشعب، إذ أن هـذا الموضـوع، من أهم المواضيع التي تتحتم على الأمير العناية به.

ولا ريب في أن فرنسا، هي من خيرة الدول تنـظيماً وحكـماً في عصرنا، وإننا لنجد فيها عدداً كبيراً من المؤسسات التي تعتمد عليها حرية الملك وسلامته، وفي مقدمة هذه المؤسسات بـالطبـع، البرلمـان وسلطته. إذ إن الذي أقام تلك المملكة، كان يعرف مطامع النبـلاء العظام وحماقاتهم، فرأى من الضروري تلهيتهم بشيء يضعونه في فمهم لكبح جماحهم. وقـد أدرك من الناحيـة الأخرى، مـا تحمله جماهـير الشعب من كراهية للنبلاء العظام، ترتكز إلى الخوف. ورغبة منه في منحهم الطمأنينة، أراد أن يجنب الملك، جعل هذا الموضـوع، محل عنايته القصوى، لينقذه مما قد يتعرض له من سخط النبلاء، إذا أرضى الشعب، ومن سخط الشعب إذا أرضى النبلاء ولهذا فقد أقام قاضياً ثالثاً، لا يخضع لأوامر الملك مباشرة، ويكبح جماع العظماء، ويعطف على جماهير الشعب. وليست هناك من وسيلة أكـثر حكمة من هـذه الوسيلة، ولا احتياطاً أجدى من هذا الاحتياط لتأمين سـلامة الملك والمملكة. وفي وسعنا أن نستخلص من هذا قاعدة بارزة، وهي أن من واجب الأمراء، أن يعهدوا بالمهام التي يحبها الشعب إلى الآخرين، وأن يقوم هو بإغداق المنح والعطف. وأود أن أختم قولي ثانية بالتأكيد على أن من واجب الأمير أن يحترم النبلاء في مملكته، شريطة أن لا يؤدي احترامه إلى كره رعاياه له.

وقد يبدو مع ذلك للبعض، إن ثمة أمثلة مستمدة من تاريخ بعض أباطرة الرومان وسير حياتهم وموتهم، تخالف رأيي تماماً، لا سيما وإن

عدداً من هؤلاء الأباطرة، رغم معيشتهم النبيلة، وما أظهروه من قوة الشخصية، قد فقدوا السلطان، أو قتلهم رعاياهم الذين تآمروا ضدهم. ورغبة مني في الرد على هذه الاعتراضات، سأتحدث عن صفات بعض الأباطرة مبرهناً على أن سبب انهيارهم لم يكن مختلفاً عما قررته من قواعد. وفي غضون ذلك، سأدرس الأمور التي تجب ملاحظتها، على كل من يقرأ سجلات تلك الأيام. وسأكتفي بالحديث عن جميع الأباطرة الذين تولوا السلطان من عهد ماركوس الفيلسوف، حتى عهد مكسيمنيوس، وهم ماركوس وولده كومودوس، وبرتيناكس، وجوليانوس، وسيفيروس، وانطونيوس وولده كراكالا، وماكرينوس وهليوغابالوس، واليكساندر ومكسيمينوس، وأول شيء يجب أن نلاحظه في هذا الحديث، أنه في الوقت الذي يتحتم على الأمراء الآخرين فقط، الاهتمام بمطامح العظام وغطرسة الشعب، فقد كان على أباطرة الرومان أن يواجهوا صعوبة ثالثة، وهي دعم ما يرتكبه الجنود من أعمال القسوة والطمع، على ما هي عليه من شدة، مما أدى إلى الاطاحة بالكثيرين من الأباطرة، إذ تعذر عليهم إرضاء جنودهم وشعبهم في وقت واحد. فالشعب يحب عادة الهدوء، ويميل تبعاً لذلك إلى الأمراء المسالمين، بينما يفضل الجنود الأمير ذا الروح العسكرية، الذي يتميز بالغطرسة والصرامة والميل إلى السلب. وهم يريدون منه أن يطبق هذه الصفات على شعبه حتى يحصلوا على مرتبات مضاعفة، وحتى يمكن لهم أن يجدوا متنفساً لمطامعهم وقسوتهم. وهكذا فإن أولئك الأباطرة، الذين لم يتمتعوا، بفضل طبيعتهم أو كفاءتهم بالسمعة الكافية، لكبح جماع الفريقين، كان مصيرهم الخراب، وكان الكثيرون منهم، ممن ارتفعوا إلى مرتبة الامبراطور، قد اقتصروا على محاولة إرضاء جنودهم، ولم يفكروا إلا قليلاً بإيذاء شعبهم، ذلك لأنهم كانوا حديثي

العهد بهذا المنصب، وإدراكاً منهم لما قد ينجم عن هذين الميلين المتضاربين من مصاعب ومشاق. وكان من المحتوم عليهم أن يختاروا، إذا كان من المتعذر عليهم، تجنب إغضاب أحد الفريقين والتعرض لكراهيته. وكان عليهم أولاً أن يلجأوا إلى كل وسيلة ممكنة لتجنب التعرض لكراهية جماهير الشعب، ولكنهم إذا عجزوا عن تحقيق ذلك، فقد كان عليهم تجنب كراهية أقوى الفريقين وأهمهم شأناً. ولذا فإن هؤلاء الأباطرة، بالنظر إلى حداثة عهدهم في منصبهم، شعروا بحاجتهم إلى الكثير جداً من العطف الاستثنائي، فتعلقوا بجنودهم بدلاً من شعبهم. أما جدوى هذه السياسة أو فشلها فيعتمدان، على ما إذا كان الأمير يعرف كيف يحتفظ بسمعته، أمام جنوده. ولهذه الأسباب، فإن ماركوس وبيرتينكس واليكساندر، بالنظر إلى حياتهم المتواضعة، وحبهم للعدالة، وعدائهم للقسوة والغلظة، وانسانيتهم، وميلهم إلى الخير، كلهم انتهوا إلى نهاية محزنة باستثناء ماركوس، الذي عاش ومات محتفظاً بشرفه، ذلك لأنه ارتقى سدة الامبراطورية عن طريق حقه الوارثي، ولم يكن مديناً بشيء لا إلى جنوده ولا إلى شعبه، يضاف إلى هذا أنه كان يتمتع بفضائل عدة جعلت منه امبراطوراً محترماً، فأوقف كلا من الفريقين عند حده، طيلة حياته، ولم يتعرض لأية كراهية أو زراية. أما بيرتينكس فقد انتخب امبراطوراً رغم إرادة الجنود الذين ألفوا حياة الفجور، في عهد سلفه كومودوس، ولذا فقد شق عليهم، أن يعيشوا حياة الشرف التي أراد بيرتينكس فرضها عليهم، وهكذا عرض نفسه لكراهيتهم. فإذا ما أضفنا إلى هذه الكراهية شعور الزراية الذي يحسون به تجاهه لكبر سنه، فقد قضي عليه في بداية عهده.

ومن هذا يبدو أن الكراهية قد تنجم عن الأعمال الطيبة بقدر ما

تنجم عن الأعمال الشريرة. ولذا يتوجب، كما قلت سابقاً، على الأمير الذي يرغب في الحفاظ على دولته أن يرتكب الشر أحياناً، إذ عندما يكون الفريق الذي تعتقد بضرورته للحفاظ على مركزك، سواء أكان فريق الشعب أو الجنود أو النبلاء فاسداً، فعليك أن تسير مع التيار، وأن تعمل على إرضائه وفي مثل هذه الحالة تكون الأعمال الطيبة مؤذية ومضرة. ولننتقل الآن إلى الحديث عن اليكساندر، فقد كان في منتهى الطيبة. ومما يروى عن فضائله الكثيرة التي كانت موضع الاطراء ما قيل من أنه في فترة الأربعة عشر عاماً من حكمه، لم يقض على أي إنسان بالموت إلا بعد محاكمة عادلة. ومع ذلك فقد اعتبر مخنثاً، لأنه سمح لأمه بالتحكم فيه. وهكذا هبط إلى مستوى الزراية والاحتقار، فتآمر عليه الجيش وقتله.

وإذا درست من الناحية الثانية صفات كومودوس وسيفيروس وانطونيوس وكاراكلا ومكسيمينوس؛ تبين لك أنهم كانوا في منتهى الغلظة والجشع، ولم يتورعوا، في سبيل إرضاء جنودهم، عن إلحاق أي أذى بأفراد شعبهم، ومع ذلك فقد انتهوا جميعاً، باستثناء سيفيروس، نهاية سيئة. أما هذا فقد توفرت له كفاءات جمة، مكنته من الإبقاء على صداقة جنوده، والحكم في منتهى السعادة، على الرغم من اضطهاده لشعبه، ذلك لأن فضائله جعلته موضع الإعجاب، عند جنوده وشعبه على حد سواء، فقابله الأولون بالإجلال والرضى، والآخرون بالدهشة والبلادة.

ولما كانت أعمال هذا السلطان عظيمة وبارزة، بالنسبة إلى أمير محدث، فسأعرض بإيجاز، كيف تمكن من أن يجمع بين صفات الثعلب والأسد وهي صفات سبق لي أن قلت إنها يجب أن يقلدها كل أمير. فقد عرف سيفيروس، وكان يقود الجيش الروماني في سلافونيا، بما عليه

الامبراطور جوليانوس من كسل وتراخ، فأقنع جنوده، بأن من الخير أن يذهبوا إلى روما للثأر لمقتل الامبراطور بيرتنكس، الذي ذبحه رجال الحرس البريتوري، وبهذه الذريعة ودون أن يكشف عن مطامعه في العرش، زحف على رأس جيشه إلى روما، فوصل إلى ايطاليا، قبل أن ينتشر نبأ مغادرته لسلافونيا. وعندما وصل إلى روما انتخبه مجلس الشيوخ امبراطوراً، خوفاً منه وفزعاً وقتل جوليانوس. وبعد هذه البداية الناجحة، واجه سيفيروس صعوبتين بالغتين، قبل أن يتمكن من السيطرة كلياً على الامبراطورية، أما أولاهما فكانت في آسيا، حيث أعلن نيفرينوس، قائد الجيوش الآسيوية نفسه امبراطوراً. وأما ثانيتهما فكانت في الغرب حيث يطمح ألبينوس في عرش الامبراطورية أيضاً. ولما رأى أن من الخطورة بمكان عظيم، أن يبدو معادياً للقائدين في آن واحد، فقد قرر مهاجمة نيفرينوس، وخديعة البينوس، فكتب إليه معرباً عن رغبته في اشراكه في هذا الشرف الذي أضفاه عليه مجلس الشيوخ باختياره امبراطوراً، ومنحه لقب قيصر. ثم أقنع مجلس الشيوخ باعلانه شريكاً له، وهي نعم صدقها البينوس وخدع بها. وبعد أن تم لسيفيروس هزم نيفرينوس وقتله، وتهدئة الأمور في الشرق عاد إلى روما، واتهم البينوس في مجلس الشيوخ بالتنكر للنعم التي أغدقها عليه، والتآمر عليه لقتله وخيانته، وإنه لذلك يجد نفسه مضطراً للذهاب ومعاقبته على نكرانه للجميل. وزحف الامبراطور المنتصر على فرنسا، حيث اشتبك معه في معركة، وحرمه من مركزه وحياته.

ويتبين لكل من يدرس بالتفصيل أعمال سيفيروس، أنه كان ليثاً كاسراً وثعلباً ماكراً، وأن الجميع كانوا يخشونه ويحترمونه، بينما لم يكن الجيش ليحس نحوه بالكراهية. ولن يدهش الدارس بعد ذلك، أن يرى هذا الحاكم المحدث، قد تمكن من القبض على ناصية مثل هذه

القوة البالغة، بالنظر إلى سمعته العظيمة، التي حمته دائماً من الكراهية، والتي كان من المفروض أن يستفزها جشعه، عند شعبه. وكان ولده انطونيوس، ذا كفاءات بالغة أيضاً، وكان يتمتع بصفات جعلته موضع إعجاب الشعب وحب الجنود، فقد كان عسكرياً بكل ما في هذه الكلمة من معنى، يحتقر الغذاء المرهف والرخاء، وغيرهما من صور البذخ، مما دفع بجنوده إلى التعلق به. ومع ذلك فقد امتاز بشراسة وغلظة، لم يعرف لهما مثيل من قبل. فبعد أن قتل الكثيرين من الأفراد العاديين، أمر بقتل عدد كبير من سكان روما، وجميع سكان الإسكندرية، حتى كرهه العالم بأسره، وبدأ المقربون منه يخشونه، وانتهى أخيراً قتيلاً على يد أحد قواده وسط الجيش. ومن الجدير بنا أن نلاحظ هنا، أن مثل هذه الميتة، التي تتم على يد رجل عازم مصمم، وعن سابق قصد وتصميم، لا يمكن للأمراء تجنبها. إذ إن كل من لا يخشى الموت في وسعه أن يقتل الآخرين. ولكن على الأمير، على كل حال، أن لا يخشى هذا النوع من الاغتيال، إذ إن مثل هذا الشكل من الرجال، نادر الغاية، وكل ما عليه أن يعمله، تجنب الإساءة البالغة لأي إنسان يعمل في خدمته، أو يكون قريباً منه، كما وقع لأنطونيوس، الذي كان قد أمر بموت شقيق ذلك الضابط، موتاً مهيناً، وكان يهدده كل يوم، على الرغم من احتفاظه به بين رجال حرسه، وهي حماقة وتهور، كما أثبتت الأيام والوقائع.

ولننتقل الآن إلى كومودوس، الذي كان في وسعه أن يحتفظ بمنصبه، لأنه وصل إليه بالوراثة. فقد كان ابن ماركوس، وكان في مكنته أن يحذو حذو أبيه، في إرضاء الشعب والجند. ولكن كومودوس هذا كان فظاً ووحشاً في طباعه، فعمد رغبة منه في ممارسة جشعه على رعاياه، إلى إرضاء جنوده والعطف عليهم، والدفع بهم إلى حياة العهر

والفجور. ولم يحتفظ من الناحية الأخرى، بالوقار الذي يفرضه عليه منصبه، فكان يهبط دائماً إلى حلبات الصراع في المسارح ويقترف أعمالاً أخرى مشينة، لا تليق بالامبراطور، مما حدا بجنوده إلى احتقاره. وهكذا اجتمع العاملان، الكراهية من ناحية، والازدراء من الناحية الأخرى، فتآمر البعض عليه وقتلوه.

ويبقى أمامنا شرح شخصية مكسيمينوس. لقد كان رجلاً محارباً، ولما كان الجيش قد أقلقه ما كان عليه اليكساندر من خنوثة وضعف، وهو من تحدثنا عنه سابقاً، فقد انتخب امبراطوراً بعد موته. ولكنه لم يتمتع بالعرش طويلاً، فقد وجد عاملان عرضاه للكراهية والزراية، أولهما ضعة أصله، إذ كان راعياً في طفولته في «تراقية»، وهي حقيقة ذاع أمرها وجعلته موضع الازدراء من جميع الأطراف. وثانيهما، تأخره في بداية حكمه في الذهاب إلى روما لارتقاء العرش الامبراطوري، واشتهاره بالفظاظة والقسوة، إذ ارتكب عن طريق وكلائه في روما وفي غيرها من أنحاء الامبراطورية، عدداً من أعمال الوحشية. وهكذا تأثر العالم بأسره سخطاً وحنقاً على ضعة أصله وكراهيته له، من جراء الخوف الناجم عن فظاظته. فتآمرت عليه ايطاليا في البداية، وسرعان ما لحق بها مجلس الشيوخ وجميع سكان روما وايطاليا. وأخيراً اشترك الجيش في التآمر، إذ بعد حصاره لأكويليا وعجزه عن اقتحامها، ثار عليه الجنود لصرامته. وعندما رأوا أن الجميع قد باتوا من أعدائه، زال خوفهم منه، وقضوا عليه.

ولن أتحدث عن هليوغابولوس أو ماكرينوس أو جوليانوس، فقد كانوا من المحتقرين، ولذا فسرعان ما قضي عليهم. ولكنني سأصل إلى نتيجة نقاشي هذا قائلاً إن الأمراء في عصرنا يواجهون مصاعب أقل من أولئك، إذ إنهم كانوا مضطرين إلى إرضاء جنودهم في دولهم إلى حد

استثنائي. إذ على الرغم من حاجتهم إلى إبداء بعض الاعتبار لهم، إلا أن المشاكل التي تنجم سرعان ما تحل، إذ لم يكن لدى أي من هؤلاء الأمراء جيوش ترتبط ارتباطاً وثيقاً بجهاز الحكومة، أو بجهاز ادارة المقاطعات، كما كانت الحالة بالنسبة إلى جيوش الامبراطورية الرومانية. ولهذا كان من الضروري آنذاك، إرضاء الجنود بدلاً من الشعب. أما الآن، فإن إرضاء الشعب، بالنسبة إلى جميع الأمراء باستثناء خاقان الترك والسلطان، أمر أكثر ضرورة من إرضاء الجنود، إذ إن في وسع الشعب أن يعمل أكثر من الجنود. وقد استثنيت سلطان الترك، لأنه يحيط نفسه دائماً بما يربو على الأثني عشر ألف جندي من المشاة، وخمسة عشر ألفاً من الفرسان، وعليهم ترتكز دعائم دولته وأمنها وقوتها. ومن واجبه أن يرجىء أي اعتبار آخر، في سبيل إرضائهم. وتنطبق هذه الحالة تماماً على مملكة السلطان، إذ إن وجودها كلية في أيدي الجنود، يحتم عليه الاحتفاظ بصداقتهم، دون الاكتراث بالشعب. ومن الجدير بنا أن نلاحظ أن دولة السلطان تختلف تماماً عن دول الأمراء الآخرين، إذ إنها تشبه البابوية المسيحية في استحالة تسميتها بالمملكة الوراثية، أو المملكة المستحدثة.. ذلك لأن أبناء الأمير المتوفي لا يخلفونه على العرش، وإنما يخلفه أولئك الذين ينتخبهم أصحاب الشأن والسلطة لهذا المنصب. ولما كان هذا النظام قديماً، فليس في وسعنا أن ننعت المملكة بالجديدة، إذ لا توجد فيها المصاعب التي تقوم في الدولة الحديثة، على الرغم من جدة الأمير، لأن القوانين والأنظمة في بلاده قديمة، قد أعدت لاستقباله وكأنه سلطان وراثي.

ولنعد الآن إلى موضوعنا. إن كل من يدرس مناقشاتي السابقة يرى أن الكراهية أو الزراية كانا دائماً العامل في سقوط الأباطرة الذين ذكرتهم، وسيلاحظ أيضاً، كيف أن بعضهم قد سلك في أعماله هذا

السبيل، بينما سلك البعض الآخر سبيلاً مغايراً. وقد انتهى بعضهم في كلتا الحالتين إلى نهاية سعيدة، بينما انتهى البعض الآخر إلى نهاية تعيسة شقية. ولما كانا بيرتينكس واليكساندر حاكمين جديدين، فقد كان من غير المجدي لهما، بل من الضار، أن يحاولا تقليد ماركوس، الذي كان أميراً وراثياً. وينطبق هذا أيضاً على كراكلا وكومودوس ومكسيمينوس، فقد كان من الويل لهم أن يقلدوا سيفيروس، مع افتقارهم إلى الكفاءات اللازمة للاحتذاء حذوه. وهكذا يصعب على الأمير الجديد، تقليد أعمال ماركوس، في إمارته، كما لا يتوجب عليه أن يقلد أعمال سيفيروس. وكل ما يجب أن يعمله، أن يأخذ عن سيفيروس تلك الأمور اللازمة لتأسيس دولته، وعن ماركوس تلك التي تفيده، وتمجده في الحفاظ على دولة قائمة ووطيدة الأركان.

المصادر والمراجع

- آراء أهل المدينة الفاضلة: الفارابي. دار المشرق. بيروت.
- ابن خلدون مؤرخاً: د. حسين عاصي. دار الكتب العلمية. بيروت.
- الأمير: نيقولو ماكياڤللي. دار الآفاق الجديدة. بيروت.
- تاريخ الفكر السياسي: جان توشار، لويس بودان، بيار جانين، جورج لافو، جان سيرنيلي. ترجمة علي مقلد. الدار العالمية بيروت.
- تاريخ فلاسفة الإسلام في المشرق والغرب: محمد لطفي جمعة. المكتبة العلمية.
- تاريخ الفلسفة الحديثة: يوسف كرم. دار القلم. بيروت.
- تاريخ الفلسفة اليونانية: يوسف كرم. دار القلم. بيروت.
- الفارابي، حياته، آثاره، فلسفته: أحمد شمس الدين. دار الكتب العلمية. بيروت.
- الفكر العربي: العدد ٢٢. مقالة حازم صاغية: نيقولو ماكياڤللي مدخل أولي.
- قصة الحضارة: ول ديورانت. ترجمة محمد بدران.
- قصة الفلسفة: ول ديورانت، ترجمة د. فتح الله محمد المشعشع. مكتبة المعارف. بيروت.

- محاضرات في علم الاجتماع السياسي: د. سهيل القش. الجامعة اللبنانية. بيروت.
- مدخل إلى علم السياسة: موريس دوفرجيه. دار دمشق.
- مذاهب فلاسفة المشرق: د. محمد عاطف العراقي. دار المعارف. مصر.
- معجم علم الاجتماع: البروفسور دينكن ميتشل. دار الطليعه. بيروت.
- مقدمة ابن خلدون: دار الكتب العلمية. بيروت.
- الموسوعة الفلسفية: م. روزنتال. ي. يودين. دار الطليعة. بيروت.
- ENCYCLOPEDIE DES CONNAISSANCES GENERALES TOME: 7. EDITIONS DE N.N.N 1987.

فهرس الموضوعات